الخطوة الأولى

سليمان بن صالح الخراشي

ⓒ سليمان صالح الخراشي، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخراشي، سليمان صالح

الخطوة الأولى. / سليمان صالح الخراشي – الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٣٩ صفحة؛ ١٤×٢١سم.

ردمك: ٦-٠٨٤٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الحجاب والسفور ٢- المرأة في الإسلام أ. العنوان

ديوي ٢١٩,١ ١٤٢٩/٣٨٨٠

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٨٨٠

ردمك: ٦-٠٨٤٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م



المملكة العربية السعودية – ص.ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٥٣٦

هاتف: ٤٢٨٥٣٩٠ – المعرض: ٢٦٧٧٥٨٤– فاكس ٢٦٧٢٥٥٨

التوزيع: ٠٥٠٦١٠٨٦٦٧– ٠٥٠٦١٠٨٧٠٧– الغربية: ٠٥٠٦٤١٦٠١٩

الخطوة الأولى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين:
تُعد مسألة «كشف وجه المرأة» البوابة الأولى التي عبر عليها «التغريب» إلى بلاد المسلمين؛ حيث كانت بداية ومرحلة أولى لما بعدها من الشرور.

وقد كان المسلمون مجمعين (عمليًا) على أن المرأة تغطي وجهها عن الأجانب. فقد نقل النووي في روضة الطالبين[١] عن الإمام الشافعي «اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات». كما نقل ـ رحمه الله ـ عن الجويني إمام الحرمين «اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات»[٢].

---

(١) (٥/ ٣٦٦).
(٢) «روضة الطالبين» (٧/ ٢١).

وقال الغزالي في إحياء علوم الدين[١]: «.. لم يزل الرجال على ممر الأزمان مكشوفي الوجوه، والنساء يخرجن متنقبات..».

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط[٢]: «.. وكذا عادة بلاد الأندلس لا يظهر من المرأة إلا عينها الواحدة».

وقال الحافظ ابن حجر: «لم تزل عادة النساء قديمًا وحديثاً يسترن وجوههن عن الأجانب»[٣].

وبمثله حكاه العيني في عمدة القاري[٤].

ونقل ابن رسلان «اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه»[٥].

وحكى السهانفوري المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ في بذل

---

(١) (٢/ ٥٣).
(٢) (٧/ ٢٤٠).
(٣) «فتح الباري» (٩/ ٢٣٥-٢٣٦).
(٤) (٢٠/ ٢١٧).
(٥) «نيل الأوطار» للشوكاني (٦/ ١١٤).

المجهود[١]: «.. اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه، لاسيما عند كثرة الفساد وظهوره».

وقال سماحة مفتي باكستان الشيخ محمد شفيع الحنفي في «المرأة المسلمة»[٢]: «وبالجملة فقد اتفقت مذاهب الفقهاء وجمهور الأمة على أنه لا يجوز للنساء الشواب كشف الوجوه والأكف بين الأجانب».

قلت: ومما يؤكد هذا الأمر أنك لا تجد مسألة كشف الوجه من عدمه قد أخذت حيزًا كبيرًا في مصنفات علماء المسلمين، ولم تستغرق جهدهم ووقتهم، بل لا تكاد تجد ـ فيما أعلم ـ مُصنَّفًا خاصًا بهذه المسألة؛ ولو على شكل رسالة صغيرة؛ مما يدل دلالة واضحة أن هذه القضية من الوضوح بمكان، وأن عمل المسلمين كما هو قائم، يتوارثه الخلف عن السلف، وهذا التواتر العملي يدلنا أيضًا على طبيعة تلقي العلماء لمثل هذه المسائل، وأنهم يُرشدون أمتهم

---

(١) (١٦ / ٤٣١).
(٢) ص٢٠٢.

لما فيه العفة والطهر والاستقامة على أرشد الأمور، وأفضل السبل.

ولم يبدأ انتشار السفور وكشف الوجه إلا بعد وقوع معظم بلاد المسلمين تحت سيطرة الكفار في العصر الحديث، فهؤلاء الكفار كانوا يحرصون على نشر الرذيلة ومقدماتها في ديار الإسلام؛ لإضعافها وتوهين ما بقي من قوتها. وقد اعتمدوا في هذا على أذنابهم من العلمانيين المنافقين الذين قاموا بتتبع الأقوال الضعيفة والشاذة في هذه المسألة ليتكئوا عليها، ويتخذوها سلاحًا بأيديهم في مقابلة دعاة الكتاب والسنة. لاسيما في المملكة العربية السعودية، آخر معاقل الإسلام.

وقد أحببتُ ـ إتمامًا للرسائل التي ألفتها في الحجاب الشرعي[١] ـ أن أجمع هذه الرسالة التي تُبين التزام المرأة

---

(١) وهي: «وقفات مع من يرى جواز كشف الوجه»، و«أسماء القائلين بوجوب ستر الوجه من غير النجديين»، و«المشابهة بين قاسم أمين ودعاة تحرير المرأة في هذا العصر». وجميعها من إصدار دار القاسم بالرياض.

المسلمة بالحجاب الشرعي «تغطية الوجه» في مختلف الدول الإسلامية، قبل سقوطها بيد المستعمر الكافر، الذي شجّع السفور والتبرج بواسطة عملائه؛ من أمثال قاسم أمين وغيره ـ كما سبق ـ. موثقًا هذا بنقولاتٍ عن علماء ومؤرخي تلك الدول[١].

وسبب هذا: أن أمة الإسلام ابتُليت ـ بعد ظهور وسائل الإعلام ـ بمرضى قلوب، حاولوا جهدهم أن يُغيبوا ويطمسوا التاريخ؛ حتى نشأ جيل من المسلمين تربى على تلك الوسائل المُفسدة المُضللة، يستنكر مثل هذا الأمر إذا سمعه، متوهمًا ـ لكثرة ما تَعَرَّض له عقله من طرق إعلامي مُفسد ـ أن تغطية المرأة المسلمة لوجهها عن الرجال الأجانب، مجرد عادة من العادات التي نشأ عليها المجتمع السعودي!

فلعل هذه الرسالة وأمثالها تكشف الحقيقة المُغيّبة لهذا الجيل المسلم الناهض ـ فتيةً وفتيات ـ، وتُساهم في إعادة

---

(١) أما الصور التي تؤكِّد هذا الأمر فيجدها القارئ في كتاب «هل يكذب التاريخ؟» للأستاذ الأديب: عبدالله بن محمد الداود ـ وفقه الله ـ.

الأمور إلى نصابها، وإبراز الحكم الشرعي الإلهي الذي ارتضاه لنساء المؤمنين؛ لحكمٍ عديدة، تحفظ لها مكانتها، وعفافها، وتُباعد بينها وبين دروب الردى التي يريد المفسدون إقحامها فيها؛ كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. ولتعلم المرأة المسلمة أن التزامها بالحجاب الشرعي طاعة لله ولرسوله ﷺ، هو من أسباب سعادتها واطمئنانها في الدنيا، وفوزها وفلاحها في الآخرة، كما أنه لن يُعيقها ـ كما يفتري البعض ـ عن مهمات حياتها ـ ولله الحمد ـ. وقد وفق الله ولاةَ أمر هذه البلاد المسلمة ـ المملكة ـ أن يُيسروا أمر الالتزام بهذا الحكم الشرعي؛ فالتعليم مناسب لطبيعة المرأة، وفي محيط غير مختلط، وكذا العمل بأنواعه ـ إن اضطُرت إليه ـ، وما خالف هذا في بعض الأعمال، نأمل من الدولة أن تُعالجه، وتُلزم القائمين عليه بالتزام شرع الله، وهذا مما يزيدهم قوة وثباتًا إلى قوتهم وثباتهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ومِن

نصر الله: نصرُ شرعه وأحكامه، والتمكين لها، والأخذ على أيدي من يريدون مخالفتها والتنصل منها، و«إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[١]، ونأمل أن يحذو حكامُ الدول الإسلامية حذو هذه الدولة، في التزام شرع الله، والرفق برعاياهم، وتيسير ما يقربهم إلى الله، وإبعاد ما يُباعدهم عنه، وهذا ما سيبقى لهم بعد الممات عند السؤال عنه، كما قال ﷺ: **«كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته»**[٢]، أما من اختار الأخرى، فلن ينفعه تمتعه أيامًا قلائل، من بعدها يبهته الحسابُ والعقابُ، وقد قال ﷺ محذرًا هذا الصنف من الحكام: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»**[٣]، وقال: **«اللهم من ولي شيئًا من أمر أمتي، فرفق بهم، فارفق به، ومن ولي شيئًا من أمر أمتي، فشقّ عليهم، فشُق عليه»**[٤].

---

(١) قالها عثمان ـ رضي الله عنه ـ. كما في «التمهيد» لابن عبدالبر (١/ ١١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٨)، ومسلم (١٨٢٩).
(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

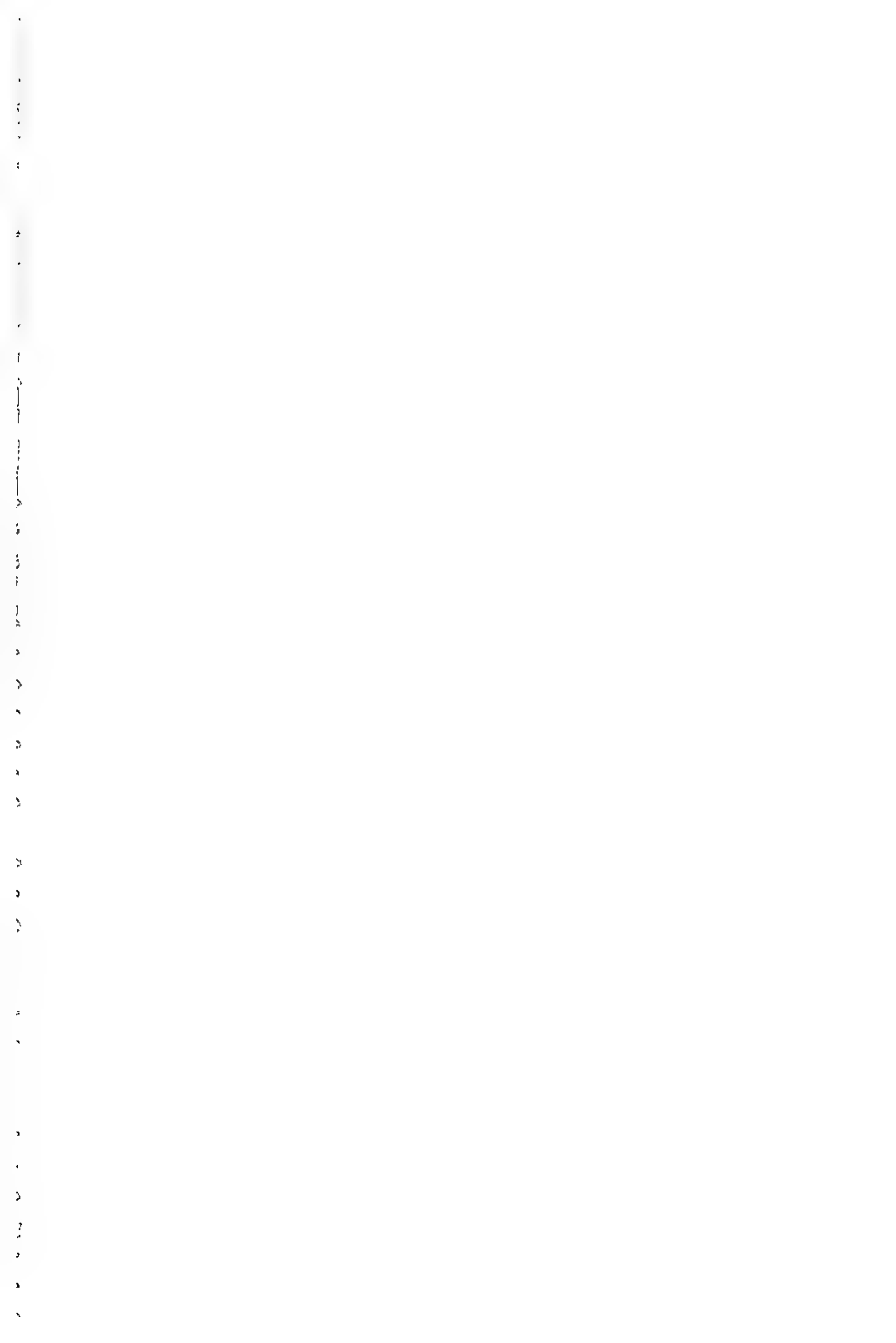
أسأل الله أن يوفق نساء المسلمين في كل مكان إلى التمسك بالحجاب الشرعي، والحذر ممن يُسهل لهن أمر التبرج والسفور؛ من أهل الفساد والإفساد، والله الهادي، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

سليمان بن صالح الخراشي
Alkarashi١@hotmail.com

* * *

(١)

بدايات السفور في مصر



(١)

بدايات السفور في مصر

ابتدأتُ حلقات هذا الكتاب بمصر؛ لأنها بوابة العالم الإسلام التي يمر عبرها ما يُراد نشره وتعميمه على البلاد الإسلامية الأخرى ـ كما أثبت ذلك الواقع[١].

فقد كانت نساء البلاد المصرية يلتزمن الحجاب الشرعي (تغطية الوجه) ملتزمات فيه بأحكام الكتاب والسنة، استجابة لله عز وجل.

---

(١) ولهذا تجد الغرب قد سهَّل مهمة هجرة بعض نصارى الشام إليها؛ لإفسادها: بالمسرح والتمثيل والصحافة الصفراء...، فكل هذا ابتدأت نشأتها من خلالهم، ثم عمت العالم الإسلامي فيما بعد.

حتى إنهن من فرط تمسكهن به قال فيهن الشاعر المصري «حافظ إبراهيم»[1]:

فلو خطرت في مصر حــواء
أمنا يلوح محياها لنا ونراقبه
وفي يدها: العذراء يُسفر وجههــا
تُصافــح منا مــن تــرى وتخاطبـــه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الأملاك ماجت مواكبه
وقالــوا لنـا: رفـع النقـاب محلَّـل
لقلنـا لهـم: حقٌّ، ولكـن نجانبـه

وقالت باحثة البادية: «نساء مصر متعودات على الحجاب، فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع؛ رأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزي، وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائي من أسباب البلاء»[2].

(١) عودة الحجاب، ص ١٥٤. ولايخفى ما في الشعر من مبالغة، فهي من قبيل التعليق على شرط مستحيل؛ كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

(٢) النسائيات (ص٢٥-٢٨).

إلا أن كيد المنافقين ومن ورائهم أساطينُ الكفر لم يُرضهم هذا الالتزام؛ لأنهم يعلمون أن إفساد المرأة هو إفسادٌ للمجتمع، وإشعاله بالفتنة التي تُضعف قواه، وتُركنه إلى الشهوات، فلا يملك من أمره شيئاً، ويتحكم به الأعداء يأتمر بأمرهم وينتهي بنهيهم، ولهذا ركزوا على هذه المسألة ؛كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢]، ولم يكن من المعقول واللائق أن يجهروا بحقيقة دعوتهم؛ لأن هذا معناه فشلها؛ لأنه لا أحد سيوافقهم عليها، ولكنهم اختاروا قضية كشف الوجه؛ لأنهم يعلمون أنها الخطوة الأولى التي يسهل ما بعدها إذا ما اقتُحِمَت؛ فبدأوا بنشر رسالة لكاتب نصراني ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ، فلما لم تجد قبولاً، لجأوا إلى الخطة الماكرة في التماس شخصيات إسلامية متواطئة، تتحدث بالكتاب والسنة؛

لتوصلهم للهدف عبر غطاء شرعي، ولندع الشيخ: محمد بن إسماعيل المقدم ـ وهو الأدرى بحال بلاده ـ يجلي لنا بدايات السفور في مصر:

قال ـ وفقه الله ـ في كتابه الفذ «عودة الحجاب»(١): «ما أشد حاجتنا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال بعد رحلة الشقاء التي تركت قلوبنا مجرحة، وأيدينا مرتعدة، وسيوفنا مثلمة، تلك الرحلة التي قام فيها على أمرنا فريقٌ التحف الإسلام، وتبطَّن الكفر، حمل بين فكيه لساناً مسلماً، وبين جنبيه قلباً كافراً مظلماً، حرص كل الحرص على أن يطفئ نور الإسلام، ويهدم عز المسلمين، فلم يجد أعونًا له على هذا الغرض السيئ من أن يُقَدم لنا الكفر والفسوق والعصيان

(١) أنقل مختارات منه، (من ص٣- ١٦٨).ـ بتصرف يسير ـ. وللمزيد عن حركة تغريب المرأة في مصر؛ يُنظر: كتاب «واقعنا المعاصر» للشيخ محمد قطب (ص٢٥٠-٢٩٤)، وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، للدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ (٢/٢٤٨-٢٦٣)، و«حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام»، للأستاذ عماد ياسين، و«حجاب المرأة المسلمة»، للدكتور فؤاد البرازي، و«المؤامرة على المرأة المسلمة ـ تاريخ ووثائق ـ»، للدكتور سيد أحمد فرج، و«ودخلت الخيل الأزهر»، لمحمد جلال كشك، و«حراسة الفضيلة» للشيخ بكر أبوزيد، (ص١٢٩ وما بعدها).

على «طبق» إسلامي، ويتولى تزيينه لنا سدنتُه من الزعماء، وربائبه من المفكرين، فكانت النتيجة ركاماً ضحخلاً تافهاً مظلماً من المبادئ التي أخذناها لنستر بها عُرينا، فعرينا!، والمناهج التي اقتبسناها لننسج بها آمالنا؛ فنسجنا بها أكفاننا!

إن كثيراً ممن نعتبرهم اليوم دعائم النهضة الحديثة[1]، لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم، ولأن كثيراً من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد

(١) كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وتلاميذهما؛ كسعد زغلول، وأحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وغيرهم ممن صوّرهم الإعلام المزيّف بصورة «المصلحين»، وما هم إلا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. وتوضيح حالهم يجده القارئ في هذه الرسائل المهمة: «دعوة الأفغاني في ميزان الإسلام»، لمصطفى غزال، و«منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»، للدكتور فهد الرومي، و«العصرانية قنطرة العلمانية»، لكاتب هذه الأسطر، طُبعت ضمن كتاب «نظرات شرعية في فكر منحرف»، وهي موجودة ـ أيضًا ـ بموقع «صيد الفوائد» على الشبكة العنكبوتية.

طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكنًا بنسبتها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم، والواقع أن كثيراً من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تبني لهم مجداً وذكراً بين الناس، ولم يكن الغرض من ذلك خدمتهم، ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادوا بها، التي وافقت أهداف الاستعمار ومصالحه.

وخطة الاستعمار واليهودية العالمية في ذلك كانت تقوم ـ ولا تزال ـ على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن «الإعلام»، وإلقاء الأضواء من طريقها على كُتَّاب ومفكرين من نوع خاص، يُبْنَوْنَ، ويُنشَّئون بالطريقة التي يُبنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء، بالمداومة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليهم، ونشر أخبارهم وصورهم، وذلك في الوقت الذي يُهمل فيه الكُتَّابُ والمفكرون الذي يصورون وجهات النظر المعارضة، أو تُشوَّه آراؤهم وتُسفَّه، ويُشهَّر بهم، ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آناً بعد آن، لا يملون من التكرار، لأنهم يعلمون أنهم

يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهدون بالسقي البذورَ التي ألقوها من قبل.

في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي، وبينما المسلمون في هجود الكرى، لم يستيقظوا بعد كل اليقظة، جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر، حتى شرَّق العالم الإسلامي، وغرَّب، وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الأوربي وخولاً له، والتي لم تدخل منها في عبوديته، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورَهبة بأسه وسطوته.

نشأت قضية المرأة في المسلمين لكون الغرب قد نظر إلى الحجاب والنقاب بعين المقت والازدراء، وصوّره أقبح تصوير وأشنعه، فيما كتب ونشر، وعدَّ (حبس) المرأة ـ على حد تعبيره ـ من أبرز عيوب الإسلام، ولكن أنّى للمنهزمين أن يغضوا عن هذه النقيصة التي أخذها (سادتهم) عليهم فيما أخذوا؟.

فادعى المنهزمون أن الإسلام قد أعطى للمرأة حرية مطلقة، وأن الحجاب من تقاليد الجهلاء، اتخذه المتأخرون

من المسلمين الجامدين المتشددين، ولا أثر له في آية ولا في حديث، وإنما القرآن والسنة يعلمان الحياء والعفاف على سبيل التوجيه الخلقي العام، وليس فيهما قانون أو ضابط يقيد حركة المرأة وتنقلها بقيد ما!

وسبب هذا الادعاء أن المنهزمين ـ المسمين برجال (الإصلاح) - لما رأوا المرأة الأوربية، وما هي عليه من زينة وحرية في الحركة والجولة ونشاط زائد في المجتمع الغربي.. لما رأوا كل هذا بعيون مسحورة، وعقول مندهشة، تمنوا بدافع الطبيعة أن يجدوا مثل ذلك في نسائهم أيضاً، حتى يجاري تمدنهم تمدن الغرب، ثم أثرت فيهم الدعوات الجديدة إلى تحرير المرأة، ومساواتهن بالرجال.. تلك الدعوات التي كانت تنصب عليهم كالوابل المدرار بلغة قوية، وفي طبع أنيق جذاب، حتى أماتت هذه الكتب والمنشورات الغربية بقوة دعايتها ملكة النقد والتجريح عندهم، فاستقر في سويداء قلوبهم أنه لابد لكل من يرغب أن يُعدَّ من (المتنورين التقدميين) ويدفع عن نفسه تهمة (الرجعية والتخلف) أن يؤمن بتلك النظريات إيمانه بالغيب، ويؤيدها، ويحامي عنها فيما يكتب ويخطب، ثم يروجها في

الحياة العملية بحسب ما أوتي من همة وجراءة، كان هؤلاء تكاد تسوح بهم الأرض من فرط الخجل حينما يرون الغربيين يتهكمون بنسائهم المتنقبات المستورات في اللباس العادي، وينبذونهن بـ(الجنائز المكفنة المتحركة)، وإلى متى -يا ترى- يطيق القوم الصبر على هذه الوخزات؟ لذلك استعدوا آخر الأمر ـ طوعاً أو كرهاً ـ لأن يقوموا فيدفعوا عن أنفسهم هذا العار المخزي.

فهذه النزعات والعواطف هي التي دفعت المنهزمين إلى أن يقوموا بحركة ما يسمى: (تحرير المرأة)، التي بدأوها أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

إن المتتبع لتاريخ هذه الحركة في مصر، يجد أن جذورها تمتد إلى عهد محمد علي باشا والي مصر[١]، حينما بعث المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنية، ثم يحملوها معهم إلى مصر، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل رجع المبعوثون من فرنسا

---

(١) يُنظر لبيان حقيقته، وما أسداه من خدمات للدول الغربية: كتاب «واقعنا المعاصر»، للشيخ محمد قطب، ورسالة «قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية»، للأستاذ سليمان الغنام.

حاملين تيارات فكرية مادية دخيلة على دينهم، بعد أن بهرتهم رهبانية العلم المادي، وتعبدهم سلطان العقل، لقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسية والتربوية والفكرية.

دور الشيخ «رفاعة الطهطاوي»(١)

كان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوي»، الذي أقام في باريس خمس سنوات «من ١٨٢٦ إلى١٨٣١م» تقريباً، وكان قد رافق البعثة المصرية كواعظ وإمام لها! وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصرية المسلمة، تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا، مثل الدعوة إلى فكرة «الوطنية القومية» بمفهومها المادي المحدود، المنابذ للرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم، وكذا استوحى من واقع الحياة

(١) يُنظر للمزيد عنه: رسالة «حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام»، للأستاذ عماد ياسين (ص ٢٧-٣٦) فقد خصص فصلاً لتبيين دوره التمهيدي.

الفرنسية أفكاراً عن المرأة هي أبعد ما تكون عن شرائع الإسلام وآدابه، وقد تجلى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة، وتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين، والرقص، حيث ادّعى في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»[١] أن «السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد»، وذلك ليبرر دعوته إلى «الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص»، مدعياً أن «الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء، بل هو أناقة، وفتوة»! وأنه لا يخرج عن قوانين الحياء، ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجال.

وهكذا كان «رفاعة الطهطاوي» أول من أثار قضية (تحرير المرأة) في مصر في القرن التاسع عشر الميلادي، فسنَّ بذلك أسوأ السنن، وبذر هذه الأفكار الدخيلة في التربية الإسلامية، ولم يدرك أنه حين ينقل هذه الآراء خاصة ما يتعلق منها بمدلول كلمة «الحرية» إلى المجتمع الإسلامي

---

(١) (ص ٣٠٥)

يمكن أن ينتهي إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها أوربة؛ وهي: نبذ الدين، وتسفيه رجاله، والخروج على حدوده، لم يُدرك ذلك، ولم يُلاحظ إلا الجانب البرّاق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها، وفي أوسع حدودها، فكان كالجائع المحروم الذي بهرته مائدة حافلة بألوان الأطعمة، فيها ما يلائمه، وما لا يلائمه، ولكنه لم ينظر إليها إلا بعين حرمانه، ولم يرها إلا صورة من النعيم الذي يتوق إليه، ويشتهيه.

وكانت دعوة جريئة من «رفاعة»، لم يجد لها معارضاً، خاصة وأن حاكم البلاد قد بارك دعوته، وبارك أول كتاب وضعه «رفاعة»، وهو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، يُبرز فيه تقدم الغرب، ويحُسِّن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه، وأكثر من هذا فقد قرأ «محمد علي» الكتاب قبل نشره - بناء على تزكية له من الشيخ «حسن العطار» شيخ الأزهر! فأمر بطبعه، وأصدر أمره بقراءته في قصوره، وتوزيعه على الدواوين، والمواظبة على تلاوته، والانتفاع به في المدارس المصرية، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية.

لقد كان «رفاعة» أول من وضع الأفكار النظرية موضع

التنفيذ، وأول من أنتج عملاً فكرياً يمهد لخطة اجتماعية عملية، وتجلى ذلك في مؤلفيه (تخليص الإبريز) و(المرشد الأمين) الذي ألفه بناءً على أمر الخديوي «إسماعيل»، وذلك عام (١٨٧٢م)، قبل افتتاح أول مدرسة للبنات ترعاها الحكومة بعام واحد، وقبل موت «رفاعة» بأعوام قليلة، ولما كان الخديوي «إسماعيل» يقود ـ في بداية تلك المرحلة ـ حركة التحديث في كل الميادين السياسية والفكرية والاجتماعية، فقد حاول بعد ذلك أن يُقنع أهل الرأي بتأليف كتاب في الحقوق والعقوبات يطبقه في المحاكم، بحيث يكون سهل العبارة، مرتب المسائل على نحو ترتيب القوانين الأوربية، ولكن أهل الرأي من مشايخ الأزهر رفضوا هذه الدعوة، فطلب الخديوي من الشيخ «رفاعة» إقناعهم بقبول ذلك، ولكنه اعتذر عن ذلك على الوجه الذي وصفه الشيخ «رشيد رضا» في كتاب تاريخ الإمام «محمد عبده» على الوجه التالي: قال الشيخ رشيد: حدثني علي باشا رفاعة بن رفاعة بك الطهطاوي قال: إن إسماعيل باشا الخديوي لما ضاق بالمشايخ ذرعاً، استحضر والده رفاعة بك، وعهد إليه أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ

بإجابة هذا الطلب، وقال له: إنك منهم، ونشأت معهم، وأنت أقدر على إقناعهم، فأخبرهم أن أوربا تضطرب إذا هم لم يستجيبوا إلى الحكم بشريعة نابليون! فأجابه بقوله: إنني يا مولاي قد شخت، ولم يطعن أحدٌ في ديني، فلا تُعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي، وأقلني من هذا الأمر، فأقاله(١).

وكان أن انزوى «الطهطاوي»، بعيداً عن مكان الصدارة، وانتأى بعيداً، ليحتل مكانة الشيخ «محمد عبده» الذي كان في ذلك الوقت في شرخ الشباب، يحدوه جرأة الشباب وإقدامه، وهنا تبدأ مرحلة جديد من مراحل «تحرير المرأة».

النصراني مرقص فهمي والقذيفة الأولى:

في سنة (١٨٩٤)، أي بعد الاحتلال الإنكليزي لمصر بحوالي اثنتي عشرة سنة(٢)، ظهر أول كتاب في مصر،

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده، لرشيد رضا، (١/ ٦٢٠-٦٢١).

(٢) للتعرف على دور المنهزمين في تمكين المحتل الإنجليزي من احتلال مصر، تُنظر رسالة «كيف احتل الإنجليز مصر؟»، لكاتب هذه الأسطر، منشورة بموقع «صيد الفوائد» على الشبكة العنكبوتية.

أصدره صليبي حقود من أولياء (كرومر) الملقب باللورد[١]، أظهره محتمياً بالنفوذ البريطاني الذي أمَّن له الطريق نحو طعن الإسلام وأهله، ذلك هو (مرقص فهمي) المحامي، وكتابه هو (المرأة في الشرق)، دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي:

أولاً : القضاء على الحجاب الإسلامي.

ثانيـــاً: إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها.

ثالثـــاً: تقييد الطلاق، وإيجاب وقوعه أمام القاضي.

رابعـــاً: منع الزواج بأكثر من واحدة.

خامساً: إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط.

وقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة، ولم يلبث المسلمون حين صدموا به حتى انطلقت في غمرات هذه الضجة قذيفة أخرى تفجرت في الوسط الإسلامي.

فقد صدر كتابٌ ألفه النصراني الآخر (الدوق داركير)

---

(١) كان المعتَمَدَ الإنجليزيَّ المتصرف في الشؤون المصرية معظم فترة الاحتلال!

باسم (المصريون)، حمل فيه على نساء مصر، وهاجم المصريين، وتعدى على الإسلام، ونال من الحجاب الإسلامي، وقرار المرأة المسلمة في البيت، واقتصار وظيفتها على تربية النشء، ورعاية الزوج، وقد هاجم المثقفين المصريين بصفة خاصة لسكوتهم، وعدم تمردهم على هذه الأوضاع.

ثم بدأ الاستعمار الإنكليزي إثر هذه الضجة يبحث عن وسيلة لشد أزر «مرقص فهمي»، فلجأ إلى الأميرة نازلي فاضل[١] ليستعجلها على عمل شيء يسانده من خلال صالونها.

---

(١) هي ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا نجل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا. كان والدها يرى أنه أحق بعرش مصر من أخيه الخديوي إسماعيل، ومن هنا كانت نازلي تعلن الحرب على خديوي عصرها عباس، وتميل إلى الإنجليز وتدعم المتعاونين معهم؛ من أمثال حزب الأمة. لاسيما وقد عادت إلى مصر بعد الاحتلال الإنجليزي! مما يبعث الريبة في سر هذا التوافق. اعتادت على حياة التحرر والصالونات المختلطة أثناء عيشها في الغرب فأرادت نقل ذلك لمصر. قال عنها محمد فريد في مذكراته: «كان لها شغف خصوصي بضباط الإنجليز وكانت تقابل الرجال على العادة الأوربية، وتحيي ليالي موسيقية في دارها، وتكثر من شرب الخمر..» انظر: (سعد زغلول: دوره في السياسة المصرية)، لعبد الخالق لاشين (ص ٣٥).

قاسم أمين: داعية السفور في عهد الاحتلال[١]

ولد «قاسم أمين» في أول ديسمبر عام١٨٦٣م بالإسكندرية، والتحق بمدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية، وكانت تقع بحي رأس التين إلى جوار السراي.

وقيل إن أباه «محمد بك أمين» من أصل كردي، وقيل: بل أصل الأسرة تركي، وإن بعض أفراد أسرة محمد بك أمين قد ولي السليمانية من أعمال العراق، وبقيت الأسرة ردحاً من الزمن تقوم بهذه الولاية، حتى ظُنَّ أنها كردية، وممن صحح هذا أحمد خاكي في كتابه «قاسم أمين».

تنبيه: ذكر الشيخ: محمد بن إسماعيل في كتابه (عودة الحجاب ١/ ٢٨، ٣٨-٣٩) أن نازلي فاضل هذه هي زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق، وأنها تنصرت هي وابنتها فتحية! ـ نسأل الله العافية ـ. والصواب أن نازلي هذه غير تلك. فزوجة الملك فؤاد التي تنصرت وابنتها هي: نازلي عبد الرحيم صبري باشا. انظر: (في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩م) للمؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي. وانظر عن قصة تنصر ابنتها: كتاب (فضائح فاروق) لمحمد سعد (ص ٩٠-٩١).

(١) ينظر للمزيد عنه: رسالة «المشابهة بين قاسم أمين ودعاة تحرير المرأة في هذا العصر»، لكاتب هذه الأسطر، نشر: دار القاسم بالرياض.

وكان أبوه قد أخذ رهينة في الأستانة على أثر خلاف وقع بين الدولة العلية والأكراد، ثم جاء إلى مصر في عهد إسماعيل باشا، وانتظم في الجيش المصري، ورقي إلى رتبة أميرالاي، وتزوج بكريمة أحمد بك خطاب، شقيق إبراهيم باشا خطاب فولدت له أولاداً كان أكبرهم قاسم.

وفي سنة ١٨٨١م نال قاسم إجازة الحقوق، ثم عمل بمكتب صديق والده التركي مصطفى فهمي المحامي، وانضم للكوكبة التي كانت تحيط بجمال الدين الأفغاني، حيث التقى بمحمد عبده وسعد زغلول ومحمد فتحي زغلول وعبدالله النديم وأديب إسحاق وغيرهم.

رحل قاسم إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك، وانبهر بالحياة في أوربا؛ حتى إنه صرح بأن أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية، تأخرها في الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى، وبعد أن كان يقر العامة حين يقولون: مصر أم الدنيا، فإنه الآن في باريس يقول إن الأصح أن تُسمى خادمة الدنيا!

ويتعرف قاسم على صديقته الفرنسية «سلافا» التي تصاحبه إلى المجتمعات الفرنسية والحفلات، ويتعرف إلى

كثير من الأسر، وتقوى العلاقة بينهما، فبينما كان يقرأ في مصر: مقدمة «ابن خلدون»، وإحياء العلوم «للغزالي»، و«الأغاني»؛ نجده في فرنسا يقرأ مع زميلته حكم «لارشفوكو» وشعر «لامارتين» وفلسفة «فنلون» و«رينان»، وأعمال «فولتير» و«روسو» و«سبنسر» وغيرهم.

وكانت في فرنسا في الوقت نفسه حركة نسائية كما كانت في إنكلترا وأمريكا حركة نسائية أخرى.

كل هذه الأفكار تأثر بها مصري يعيش في قلب باريس، في قلب هذه النظريات. وفي هذا الوسط اضطرب قاسم المسلم الشرقي.

التقى قاسم في فرنسا بالأفغاني ومحمد عبده، وانضم إلى جمعية «العروة الوثقى» واتخذه محمد عبده مترجماً له.

وبعد أن أتم قاسم دراسته في فرنسا طلب إليه أستاذه «لرنود» أن يعمل معه بضعة شهور يكتسب فيها خبرات عملية، ووافق قاسم أمين.

الخطوة الأولى: ردُّه على «داركير»

قرأ «قاسم أمين» كتاب «داركير» عن المصريين، فتألم

أشد الألم، حتى قيل: إنه مرض عشرة أيام بعد قراءته! لشدة تأثره، فحاول أن يدافع عن المصريين والإسلام، وألف رداً بالفرنسية، حاول فيه تفنيد اتهامات داركير لمصر والمصريين، وتبيين فضائل الإسلام على المرأة المصرية، والرفع من شأن الحجاب، وعد هذا دليلاً على كمال المرأة، وحاول شرح الحكمة الإيجابية في قوانين الشرع الإسلامي، إلا أن دفاعه قد بدا تبريرياً، وشرحه قد اتسم بالخنوع والذلة؛ مثلاً: يقول، وكأنه يناشد داركير أن يعتبر الإسلام في مرتبة النصرانية والمجوسية!: «إن الإسلام دين خلقي، لا يقل عن المجوسية ولا عن المسيحية، وإن روح القرآن لا تختلف عن الروح الإنجيلية». ويقول أيضاً: «...ولهذا كان أمامها ـ أي مصر ـ طريقان: العودة إلى تقاليد الإسلام، أو محاكاة أوربا، وقد اختارت الطريق الثاني... إنها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه، إن مصر تتحول إلى بلدٍ أوربي بطريقة تثير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوربي... لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف في أوربا، كما اعتاد الأوربيون قضاء الشتاء في مصر،

فلعل أوربا تقدر لمصر مسيرتها، ولعلها ترد لها يوماً بعض هذا الود الكبير الذي تكنه لها مصر»!!

ومما تجدر الإشارة إليه أن قاسماً استنكر في كتابه هذا خطة بعض المصريات اللائي يتشبهن بالأوربيات، فاقتنص بعض خصومه الفرصة، ووشوا به إلى الأميرة نازلي: أن قاسماً إنما يعنيها بهذا التعريض، بذم المصريات اللائي يقلدن الإفرنجيات، ويسرن سيرتهن، لأنه لم يكن في نساء مصر آنذاك من يتشبه بالنساء الأوربيات غيرها، فقد كانت الوحيدة التي تختلط بالرجال، وتجالسهم في صالونها الذي افتتحته آنذاك؛ ليكون مركزاً تبث منه الدعوة إلى التغريب.

غضبت الأميرة مما فعله قاسم أمين، وقالت للشيخ محمد عبده قولاً شديداً بعد أن هددت، وتوعدت، وقد أشير إلى جريدة (المقطم) لسان حال الإنكليز في مصر في ذلك الوقت أن تكتب ست مقالات تتعقب آراء قاسم أمين في كتابه، وتفند أخطاءه في دفاعه عن الحجاب، واستنكاره الاختلاط بين الجنسين، ولكن لم تلبث هذه الحملة أن ألغيت بعد أن اقتنع قاسم أمين بضرورة تصحيح خطئه، واتفق معه سعد زغلول ومحمد عبده على أن ينشر كتاباً

يصحح فيه خطأه، ويؤيد فيه الدوق داركير، ويواصل مناصرته لكتاب «المرأة في الشرق» للقبطي مرقص فهمي!!

وهكذا خرج قاسم أمين على البلاد بكتابه الشهير «تحرير المرأة» سنة (١٨٩٩م)، دعا فيه إلى نفس ما سبق أن دعا إليه ذلك الصليبي بحذافيره، اللهم إلا أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمات من الأقباط؛ لحساسيتها ذاك الوقت.

أثر الأميرة «نازلي» في فكر الشيخ «محمد عبده»:

كان الشيخ محمد عبده صديقاً حميماً للأميرة «نازلي فاضل» السيدة البرزة للرجال، والتي كان يلقبها بتمثال الكمال والجمال! التي قال فيها: «حضرة البرنسيس التي لها من قلبي المنزل الأبهى، والمقام الأسنى»[(١)]، التي سعى عند أستاذه الأفغاني أن يتوسط لها لدى السلطان في الأستانة، فيمنحها وساماً سلطانياً.

وكانت هذه الأميرة قد سبقت بالفضل، فقد سعت لدى الخديوي «توفيق» للعفو عن محمد عبده عقب عودته من منفاه، كما التمست وساطة اللورد «كرومر» للأمير نفسه، وتم

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده، لرشيد رضا، (١/ ٨٩٧).

المراد، وعفا عنه الخديوي، وعاد ليأخذ مقامه الأسنى بين مفكري عصره مرة ثانية.

وقد أدركت تلك الأميرة النقادة التي تعرف مواهب الرجال، ما «للشيخ» من تفوق عقلي وخلقي، ومن جمال في نفسه وحسه، فخصته بمكانة تجمع بين الحب والإجلال، وكان الشيخ يجد في كنف الأميرة ما يغذي روحه الحساس وذوقه اللطيف، ويجدد نشاطه للعمل!

ولهذا ظهر تأثيرها على الشيخ محمد عبده في أناقة أسلوبه الكتابي، وتجديده في موضوعاته، وفي علاقته بالإنكليز الذي كان يكرههم قبل التعرف عليها، أثناء صحبة الأفغاني وعقب الثورة العرابية، أما بعد اتصاله بالأميرة - التي كانت صديقة لبعض الإنكليز - فقد خفت حملته ضد إنكلترا، وسمح بصداقته الشخصية للورد «كرومر» صديق الأميرة، وهذا ما أحنق صدور بعض الوطنيين عليه.

كتاب «تحرير المرأة»:

كتب (فارس نمر) صاحب صحيفة (المقطم) في مقال له في مجلة (الحديث) الحلبية عام ١٩٢٩م يقول: «اتفق

محمد عبده وسعد زغلول ومحمد المويلحي وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار إلى سمو الأميرة، فقبلت اعتذاره، ثم أخذ يتردد على صالونها، وارتفع مقامها لديه، وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة، الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي، والذي أقام الدنيا وأقعدها، بعد أن كان قاسم أمين أكثر الناس دعوة إلى الحجاب!» اهـ.

طبع الكتاب سنة ١٨٩٩م، وقد ألغى فيه أفكاره الدفاعية التي أوردها في كتابه السابق (المصريون)؛ سواء المتعلقة بتقييمه للإنسان المصري، أو المتعلقة بالمرأة المصرية، أو أحكام الشريعة، وما يسميه (المدنية الإسلامية)، فبينما نجده في كتابه (المصريون) يصف المصري بالأمانة والشجاعة والذكاء وقوة الاحتمال، ويعزو هذه الخصال الجيدة لحقيقة الهوية الإسلامية للمصري، نجده يقول بعد خمس سنوات في كتابه (تحرير المرأة)[1]: «... فالتركي، مثلاً، نظيف صادق شجاع، والمصري على ضد ذلك، إلا أنك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل

(١) الأعمال الكاملة، قاسم أمين (٢/ ٧٢).

والانحطاط، إذن لابد أن يكون بينهما أمر جامع، وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معاً في حالة واحدة، ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعاً إلا الدين، ذهب جمهور «الأوروباويين»، وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين، إلى أن الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم....»! وقد انصرف جهد المؤلف في هذا الكتاب إلى التدليل على ما زعمه من أن «حجاب المرأة بوضعه السائد[1] ليس من الإسلام وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده»!!

وقد علق الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ على هذا المنهج اللئيم بقوله: «أحب أن أسأل الذين يحاولون أن يسوغوا باطلهم الذي يقحمونه على إسلامنا بمزاعم يتحايلون على إلصاقها بالدين ونصوصه، أحب أن أسأل سؤالاً حاسماً يفرق بين الحق والباطل: هل تعلمون أن أحداً من المسلمين قد دعا قبل اليوم بدعوتكم؟ فإذا كان

(١) يقصد تغطية الوجه.

ذلك لم يحدث من قبل، فهل تستطيعون أن تزعموا أن صحابة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم وفقهاء المسلمين قد غفلوا جميعاً عن فهم نصوص دينهم، حتى جاء هؤلاء الذي أوحى إليهم شياطين الجن والإنس في باريس من أمثال قاسم أمين، فانتكس تفكيرهم بين معاهدها ومباذلها، حين لم يعتصموا من دين الله بحبل متين، ولم يأووا بهديه إلى ركن شديد، يذود عنهم كل شيطان مريد، وذلك حين بُعثوا إلى تلك البلاد لينقلوا إلينا الصالح النافع من علومها وصناعاتها، فضلوا الطريق، وعادوا إلينا بغير الوجه الذي بُعثوا به، جاء هؤلاء بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن؛ ليُخرجوا للناس حقائق التنزيل التي غاب علمها عن الأولين والآخرين من الفقهاء والمفسرين، ويضربوا بإجماع المسلمين في الأجيال المتعاقبة والقرون المتطاولة عُرْضَ الحائط!! أليس ابتداع هذه الدعوة في ظل الاحتلال الإنكليزي، وتزعم فريق من المتفرنجين الذين عُرفوا بموالاة ذلك الأجنبي المحتل، هو وحده دليلاً كافياً على أنها طارئة علينا من الغرب، تقليداً

لمذاهب أهله المبتدعين في دينهم بأهوائهم وأهواء رؤسائهم، والخارجين على نصرانيتهم وكتابها ؟»[١].

هل كان للشيخ محمد عبده دور في الكتاب؟

كان المعروف عن قاسم أمين أنه ليس له إلمام بالعلوم الشرعية بحيث يتمكن من إضفاء الصبغة الفقهية على كتابه، ومن هنا شاع بين الناس وقتها أن مؤلفه في الحقيقة هو أستاذه الشيخ محمد عبده.

قال الدكتور محمد محمد حسين: «جاء كتابه -تحرير المرأة- مملوءًا بالمغالطات؛ سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية، أو الأدلة العقلية، وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ محمد عبده، متذرعا إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذي زعم أن الفقهاء أغلقوا بابه، وهو يدعو إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية»[٢].

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها، (ص ١٢١-١٢٢).

(٢) الاتجاهات الوطنية.. ، (١/ ٢٨١-٢٨٢).

وقال داود بركات رئيس تحرير الأهرام[١]: «وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول الكتاب، أو كان له دور في مراجعتها».

وقالت وداد السكاكيني: «فتح -أي محمد عبده- على الناس أبواباً جديدة، تلج منها المرأة المسلمة إلى الحياة التي وهبها الخالق إياها، كما وهبها للرجل، ولكن النفوس لم تكن هُيئت تمام التهيؤ في البداية، ورأي الإمام ألا يخاطر فيلج بنفسه هذا الميدان، ويرقى مرتقاه الصعب، فيقف أمام الجهلاء يحاربونه(!) فيؤثر ذلك على مركزه كإمام للإصلاح(!) يستند على الدين، وتضيع بذلك فرص في الإصلاح(!) في الميادين الأخرى، فهيأ لهذا الميدان بالذات جندياً يصلح له من تلاميذه، هو قاسم أمين، ثم وقف يسانده، ويحميه من بعيد..»[٢].

دور سعد زغلول:

قال الصحافي مصطفى أمين: «كان قاسم أمين لا يفترق

---

(١) الأهرام، مايو ١٩٢٨م.

(٢) قاسم أمين، لوداد سكاكيني، ص ٤٦.

عن سعد زغلول، وكان قاسم أمين هو الذي توسط في زواج سعد زغلول بصفية زغلول، وكان سعد زغلول هو الذي وقف إلى جوار قاسم أمين عندما أصدر كتاب (تحرير المرأة)، وهوجم بعنف وضراوة، واتُّهم بالكفر، ومُنع من دخول قصر الخديوي بدعوى أنه يدعو إلى الإباحية، وأقفل الناس بيوتهم في وجهه، وذهب عدد من الشبان المتحمسين إلى بيته في شارع الهرم، واقتحموا بيته، وطالبوه أن يسمح لهم بأن يجتمعوا على انفراد مع زوجته تطبيقاً لدعوته إلى سفور المرأة!

عندما أقفل كبار المصريين في وجه قاسم أمين الباب فتح سعد له بيته، ودعاه هو وزوجته ليتناول الغداء والعشاء على مائدة صفية زغلول، وأصر أن يخرج في عربته مع قاسم أمين، ويطوف شوارع العاصمة متحدياً للأصدقاء الذين نصحوه بأن لا يظهر مع قاسم أمين في مكان عام، وإلا ضربه الناس بالطوب، وعندما وضع قاسم أمين كتابه الثاني (المرأة الجديدة) متحدياً العاصفة الهوجاء، ومطالباً بأن تحضر المرأة مجالس الرجال، وتمارس الأعمال الحرة، أهدى كتابه الجديد إلى سعد زغلول صديقه الحميم، ونصيره

الأول»[١].

وقال العقاد: «كان ـ أي سعد زغلول ـ.. هو الذي أعان قاسم أمين زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في (تحرير المرأة) وتشجيعه على احتمال مالقي في سبيله من سخط وعناء»[٢].

وقال الدكتور السيد أحمد فرج ـ حفظه الله ـ: «والرأي أنه لم يكن في استطاعة قاسم أمين أن يُبرز نفسه بهذه الآراء الجريئة ـ في ذلك العصر ـ لولا تعضيد الإمام محمد عبده، وأحد تلاميذه الذي صار زعيماً للأمة: سعد زغلول باشا، وقد بلغ حب قاسم أمين لهما مبلغاً كبيراً، فأهدى كتابه الثاني (المرأة الجديدة) لسعد زغلول، واستشهد على صحة أقواله فيه بمباركة الشيخ محمد عبده لها، وبنشر كل بنود اقتراح الشيخ في شأن إصلاح قانون الأحوال الشخصية في آخره.

وسعد زغلول ـ في الحقيقة ـ هو الذي ضمن تنفيذ

(١) جريدة المساء، الخميس ٤ أغسطس ١٩٨٣م، مقالة بعنوان: «هل انتحر محرر المرأة».

(٢) سعد زغلول، ص ٥٢٧.

أفكار قاسم أمين تنفيذاً عملياً، فقد رحل الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥م، ورحل تلميذه قاسم أمين بعده بسنوات قليلة، وكان في ميعة شبابه، ثم بقي سعد زغلول يقود المجتمع، ويكيفه كما يريد، وكان قادراً خاصة وأن الظروف الاجتماعية والفورة الوطنية قد هيأتا الناس لتقبل الأفكار الجديدة، ووضعها موضع التنفيذ العملي، فقد ظل العقلاء ـ كما سماهم جرجي زيدان ـ يتهامسون في موضوع تحرير المرأة، حتى صرح الشيخ محمد عبده بآرائه، فكثر مريدوه، والمؤمِّنون على أقواله، وأول أولئك قاسم أمين، وسعد زغلول المنفذ الحقيقي لهذه الأفكار»[١].

ردة فعل أنصار الفضيلة :

أصدر عدد من العلماء والفضلاء كتبًا في الرد على كتاب قاسم، من هذه الكتب: «السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب» لمحمد إبراهيم القاياتي. ومنها: «الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس» لمحمد أحمد حسنين البولاقي. ومنها: «خلاصة الأدب» لحسين

---

(١) المؤامرة على المرأة المسلمة، ص ٦٤.

الرفاعي. ومنها: «نظرات في السفور والحجاب» لمصطفى الغلاييني. ومنها: «قولي في المرأة» لمصطفى صبري[1]. ومنها: «رسالة في مشروعية الحجاب» لمصطفى نجا. ومنها: «رسالة الفتى والفتاة» لعبد الرحمن الحمصي.

قال الشيخ محمد البولاقي في كتابه: «أما بعد، فقد اطلعت على كتاب ألفه أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية وسماه تحرير المرأة ووصفه نصيحة لأبناء عصره من الأمة الشرقية - أي المسلمين- بإرشادهم إلى أمر غاب عن أذهانهم وضلت عنه عقولهم، ولم يتنبه له أحد من عقلائهم منذ خلقهم الله تعالى إلى هذا الوقت! ألا وهو شأن المرأة لمساواتها للرجل، **فتكشف عن وجهها النقاب**، وتخالط غير المحارم من الرجال»[2].

كتاب «المرأة الجديدة»:

لم يلبث مؤلف (تحرير المرأة) حين واجه هذه

(١) وخصص - رحمه الله - أيضًا - جزءًا من كتابه «موقف العقل...»، للحديث عن كتاب قاسم. انظر (١/ ٤٨٥ وما بعدها).

(٢) الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس، ص ١٩.

المعارضة التي أحرجته كثيراً أن أسفر عن وجهه الحقيقي، وخلع عنه ثوب الحياء، وقناع التدين، وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي، هو كتاب (المرأة الجديدة)، الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً، فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة، التي ترفض كل المسَلَّمات والعقائد السابقة، سواء منها ما جاء من طريق الدين، وما جاء من غير طريقه، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع، على حسب المنهج الذي يسلكه باحثو الاجتماع الأوروبيون، وهو ما يسمونه بـ (المنهج العلمي)، فتراه يعتمد على آراء مفكري الغرب، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء، وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية.

فبينما كنت تراه هادئاً في كتابه الأول، يحوم حول النصوص الإسلامية، ويمتص من رحيقها، لتعضيد مواقفه في المطالبة بحقوق المرأة، إذا به ينقلب في الكتاب الثاني، ويسلط حِمَم غضبه، ويستعمل عبارات قاسية في التعبير عن رأيه، عبارات لا تقرها المرأة ذاتها، فهو لا يقبل ـ بزعمه ـ «حق ملكية الرجال للنساء»، ويرى ترك حرية النساء للنساء،

حتى ولو أدى الأمر إلى إلغاء نظام الزواج! حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة، لا تخضع لنظام، ولا يحددها قانون!

و«المرأة الجديدة» التي قصدها قاسم أمين هي المرأة الأوربية التي أراد من المصرية أن تتحول إليها، وتتخذها مثلاً أعلى، قال قاسم: «هذا التحول هو كل ما نقصد، وغاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال، وأن تكون مثلها تحرراً، فالبنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن، ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض وحدهن، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى، ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما، وكان من تحررها أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج، والرجل يرى أن زوجته لها أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها»[١]!!

(١) «المرأة الجديدة» ص(٧٠-٧١).

دعوة (تحرير المرأة) بعد هلاك قاسم:

وبموت قاسم أمين لم تهدأ هذه الدعوة إلى تدمير المرأة إلا قليلاً، وكيف يهدأ للإنكليز بال والخطة لم تصل بعد إلى أهدافها؟

وإن مات قاسم أمين فهناك على الساحة السياسية من يستأنف الدور، ويحمل اللواء، هناك «حزب الأمة» وزعاماته المعروفة بعمالتها للإنكليز؛ من أمثال: أحمد فتحي زغلول عضو محكمة دنشواي، والهلباوي جلادها وسفاحها، وهناك وكلاء الغرب المنضوون تحت لواء هذا الحزب، من أمثال لطفي السيد الذي حمل على عاتقه الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير، وهو الذي يتحدى المسلمين، ليُدخل الفتيات في الجامعة مختلطات بالطلاب، سافرات الوجوه، لأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية(١)، وظل أستاذ التضليل يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات الجريدة لسان حزب الأمة.

---

(١) ينظر لبيان هذا: مقدمة كتاب «إهابة»، للكاتبة المسلمة عزيزة عباس عصفور ـ رحمها الله ـ. نشر :دار القاسم بالرياض.

صدور مجلة «السفور»:

ولما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت الفرصة سانحة لإخفات صوت أهل الإسلام، وتشريد دعاتهم، وكتم أنفاسهم؛ اعتقلت السلطات البريطانية رجال الحزب الوطني، فانتهز أنصار الحركة النسائية الفرصة، وأصدروا مجلتهم (السفور)، باسم عبدالحميد حمدي، وقد أخذت على عاتقها نشر الدعوة ضد الحجاب، وضد الآداب الإسلامية، وممن كتب فيها داعياً إلى السفور: مصطفى عبدالرازق، وعلي عبدالرازق، وطه السباعي، وصاحب المجلة، وغيرهم.

وإلى قيام ثورة ١٩١٩م كانت هذه الدعوة الآثمة محصورة في أضيق الحدود، حتى إن المتظاهرات اللاتي أغراهن دعاة التحرير بالخروج في ذلك الحين كن محجبات يرتدين البراقع البيضاء، ولا يخالطن الرجال.

الطفـرة:

وقد كانت ثورة (١٩١٩م) أكبر طور طفر بحركة «تحرير المرأة»، وقد تمثل ذلك في مشاركة المرأة في الثورة،

ومؤازرة سعد زغلول للحركة النسائية، وكانت المشاركة الفعلية للمرأة بمظاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩م، وكانت هذه المشاركة في ذلك اليوم بمثابة جواز المرور الذي تجاوزت به المرأة الحائط القديم الذي قبعت طويلاً خلفه، ولم تعد إليه أبداً، بعد أن وضعت قدمها موضع قدم الرجل، فعندما تشكل الوفد المصري من الرجال، همت المرأة فشكلت لجنة الوفد من السيدات اللاتي اجتمعن برئاسة هدى شعراوي في الكنيسة المرقصية الكبرى! يوم (٨ يناير سنة ١٩٢٠م)، ومنذ ذلك التاريخ انتقل التنظيم النسائي إلى مرحلة العمل المنظم، على أساس أنه هيئة مستقلة حرة معترف بها، لها الحق في أن تشارك في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد.

وظلت الصحافة في هذه المرحلة تؤازر المرأة، خاصة التي يحررها صحافيون سفوريون ممن كانوا يؤازرونها من قبل، وممن انضم إليهم من أمثال الدكتور محمد حسين هيكل صاحب جريدة السياسة، وبعض كتاب مجلة الهلال وغيرهم، ورسمت الصحافة صورة المرأة المثالية التي يجب أن تتمثلها المرأة المصرية وهي نفسها، صورة المرأة

الأوروبية في ذلك الوقت، يقول أحد الكتاب[١]: «المرأة الأوربية عندها واجبان مقدسان: بيتها ووطنها، وبين الواجبين تخص بساعة نفسها، فتحضر حفل موسيقى، أو تدعو أصحابها لليلة راقصة، ولا تنسى أن تقف أمام المرأة لتزين حالها، فتتذكر دائماً أنها امرأة، إنها في نظري مثال المرأة الأعلى، ويحسن بالمرأة الشرقية أن تقتبس عنها كل شيء»!

وربط كتاب هذه المرحلة صراحة بين تحرير المرأة وفكرة المصرية، ونبذ فكرة الإسلامية، يقول محمود عزمي ـ وكان من أبرز كتاب تلك المرحلة ـ: «تأثرتُ بكتب قاسم أمين تأثرًا عجيباً، جعلني أمقت الحجاب مقتاً شديداً، يرجع هذا إلى اعتبار خاص، هو اعتباره من أصل غير مصري، ودخوله إلى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب، فكان حنقي على أولئك الأجانب الفاتحين الإسلاميين يزيد»[٢]!

---

(١) عن «المؤامرة على المرأة المسلمة»، ص ١٤.

(٢) مجلة الهلال، العدد الماسي، ص ١٣٢.

جريمة الزعيم:

صحبت صفية زغلول زوجها سعد زغلول في باريس لحضور مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠م لعرض القضية المصرية، وقد مكثت صفية ترتدي الحجاب إلى أن عادت مع سعد زغلول إلى مصر عند عودته من منفاه، وعلى ظهر الباخرة التي نقلتهما إلى الإسكندرية، وجد سعد البحر وقد امتلأ بألوف المخدوعين يستقبلونه بالقوارب، فقال لصفية: ارفعي الحجاب، وتدخّل علي الشمسي، وواصف بطرس! ـ من أعضاء الوفد ـ وعارضا ذلك، فقال سعد زغلول: «المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع، ومن حقها أن ترفع الحجاب اليوم»!، ورفعت صفية زغلول الحجاب، ثم وقفت إحدى صنائع الاستعمار تخطب في القاهرة في احتفال الشعب المخدوع بقدوم الزعيم، فطلبَ منها رفع الحجاب، وعندئذ رفعت الحاضرات الحجاب!

وجاء في جريدة «الجمهورية» الصادرة في (٢٠/ ٤/ ١٩٧٨م) في الذكرى السبعين لموت قاسم أمين تحت عنوان: «تحليل شخصية قاسم أمين»: «ولما تولى سعد زغلول زعامة الشعب في عام ١٩١٩ م اشترط على السيدات اللواتي

يحضرن لسماع خطبه أن يزحن النقاب عما سمح الله به من وجوههن، وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور».

وفي رواية: نفت بريطانيا صديقها سعد زغلول وجماعته إلى جزيرة «سيسل» فترة، ثم أعادته إلى مصر لتوليه رئاسة الوزارة، وتوقع معه معاهدة، فيكون احتلال بريطانيا لمصر شيئاً رسمياً متفقاً عليه!

فهيئ الجو في الإسكندرية لاستقبال سعد، وأُعد سرادق كبير للرجال، وآخر للنساء المحجبات، وأقيمت الزينات في كل مكان، ونزل سعد من الباخرة، وعلى استقبال حافل وهتافات أخذ طريقه إلى سرادق النساء - دون سرادق الرجال- فلما دخل على النساء المحجبات، استقبلته هدى شعرواي بحجابها. فمدّ يده -يا ويله- فنزع الحجاب عن وجهها، تبعاً لخطة معينة، وهو يضحك، فصفَّقت هدى وصفقت النساء لهذا الهتك المشين.. ونزعن الحجاب![1].

---

(١) قال الأديب الهالك إحسان عبدالقدوس: «كانت هدى شعراوي أول مصرية رفعت عن وجهها الحجاب...». (هدى شعراوي ـ الزمن والريادة!)؛ للدكتورة جورجيت عطية، (ص٩٦)، وأضافت: «.. وتمنى سعد على زوجته أن تحذو حذوها، ولكن صفية تراجعت في اللحظة الأخيرة؛ حين

ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية، استجابة لـ(رجل الوطنية) سعد، وأصبح الحجاب نشازاً في حياة المسلمة المصرية.

لقد فعل سعد بيده ما دعا إليه اليهودي القديم بلسانه، فكلّفه دمه، أما سعد..؟!

ويستنكر الشيخ مصطفى صبري ـ رحمه الله ـ هذه الجريمة التاريخية البشعة قائلاً: «وكأني بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احتراماً لسعد، أو انتقده عليه قليل منهم من غير تصريح باسمه، كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد، ولكن النهي عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء، وإن الحق وخاطر الإسلام أكبر من سعد وألف سعد، وإني

همّت بالنزول من الباخرة، وهي إلى جانب سعد، أمام الجموع المحتشدة لاستقباله، وبحركة سريعة أعادت النقاب إلى وجهها خجلة. على أن الأمر لم يطل بصفية حتى أسقطت البرقع»!.

قلت: قارن فعل سعد وزوجته ـ فيما بعد ـ بما ذكره الأستاذ أحمد تيمور في ترجمة الشيخ محمد العباسي من أن قضية رُفعت إلى المحكمة طُلب فيها كشف امرأة مصرية لوجهها «فامتنعت محتجّة بعدم جوازه في الشريعة. واستفتي المترجَم ـ أي الشيخ العباسي ـ فأفتى بعدم الجواز». (أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث)، (ص٦٩).

تذكرت هنا سعد بن عبادة الصحابي رضي الله عنه، وقول النبي ﷺ فيه: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني»(١).

وانخدع كثير من النساء وأولياؤهن بتلك الدعاوى المعسولة المسمومة، وأخذت الفتاة المسلمة تتمرد على الحجاب، وتحاول التخلص منه، فبدأت لأول مرة بإلقاء البرقع الذي كان على وجهها، فظهرت الوجوه وما يحجبها برقع، ولا يغطيها نقاب، ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ. انتهى كلام الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم ـ حفظه الله ـ.

قلتُ: أما كيف حدث الاختلاط في الجامعة المصرية؟ فإليك خبره الذي يدلك على خطورة الكيد العلماني وخبثه، واستغلاله للفرص السانحة في سبيل إقرار فساده وإن غلف ذلك بدعاوى الإصلاح، كما هو شأنهم في كل زمان ومكان، وكما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا

---

(١) قولي في المرأة، ص(٧٤-٧٥)، والحديث أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة:١١-١٢].

لقد افتتحت الجامعة المصرية في حدود ضيقة عام ١٩٠٨م[(١)]، خالية من الاختلاط، حيث كان لا يدرس فيها سوى الطلاب الذكور، نظراً لعدم تفكير من أنشأها في مصير الفتيات عندما يكبرن ويتخرجن من الثانوية[(٢)]. واستمر الحال على ذلك إلى أن جاء العام الدراسي ١٩٢٨-١٩٢٩م عندما تقدمت ست فتيات ممن أتممن دراستهن الثانوية يطلبن الالتحاق بالقسم التحضيري لكلية الطب بالجامعة[(٣)]، فترددت إدارة الجامعة في قبولهن، إلا أن المكر العلماني استغل هذه الفرصة الذهبية، وتمكن من إقرار الاختلاط في الجامعة في مؤامرة دنيئة قام بها أساطين العلمانية الذين كانوا

(١) ينظر كتاب «في أعقاب الثورة المصرية»، للمؤرخ عبدالرحمن الرافعي (٢/ ٢٦٠).

(٢) وهذا دليل على النظرة القاصرة التي تحكم أعمال كثير من المسلمين، حيث يجد من خلالها أهل الفساد ثغرات كثيرة يُنفذون مخططاتهم عن طريقها. فهل من معتبر؟!

(٣) ينظر: «مذكرات هدى شعراوي»، رائدة التغريب بمصر، ص٤٢٧، وقد ذكرت أسماء هؤلاء الفتيات.

متربعين على سدة المناصب في الجامعة، وهذا ما اعترف به أحدهم، وهو طه حسين[١]، حيث قال في حفل تخريج أول دفعة من فتيات الجامعة: «أظن أن موقفي الآن، ولست من الرجال الرسميين، يسمح لي بأن أكشف لحضراتكم عن مؤامرة خطيرة جداً حدثت منذ أعوام، وكان قوامها جماعة من الجامعيين، فقد ائتمر الجامعيون وقرروا فيما بينهم أن يخدعوا الحكومة وأن يختلسوا منها حقاً اختلاساً لا ينبؤنها به ولا يشاورونها فيه، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي في الجامعة المصرية.

وأؤكد لكم أيها السادة إنه لولا هذه المؤامرة التي اشترك فيها الجامعيون بنوع خاص: أحمد لطفي السيد باشا[٢]،

---

(١) أحد أعمدة الضلال في هذا العصر، له جهود كبيرة في تغريب مصر، يُنظر لمعرفة أفكاره وانحرافاته: كتاب الشيخ محمود مهدي الإستانبولي ـ رحمه الله ـ: «طه حسين في ميزان العلماء..»، وكتاب الأستاذ أنور الجندي ـ رحمه الله ـ «طه حسين في ميزان الإسلام».

(٢) أحد أعلام أهل الضلالة بعصرنا، لُقب زورًا بأستاذ الجيل!، يُنظر لمعرفة انحرافاته: رسالة «نظرات شرعية في فكر منحرف»، لكاتب هذه الأسطر.

وعلي إبراهيم باشا[١]، وهذا الذي يتحدث إليكم، لولا هذه المؤامرة التي دبرناها سراً في غرفة محكمة الإغلاق لما أتيح لنا ولا للاتحاد النسائي أن أقدم إليكم الآن محامية مصرية وأديبات مصريات. اتفق هؤلاء الثلاثة فيما بينهم أن يضعوا وزارة المعارف أمام الأمر الواقع، وكان القانون الأساسي في الجامعة يبيح دخول المصريين، وهو إن كان لفظاً مذكراً ينطبق على المصريين والمصريات. وعلى ذلك ائتمرنا على أن تقبل الفتيات إذا تقدمن إلى الجامعة. وفعلاً تقدم هؤلاء الفتيات فقبلناهن ولم نحدث أحداً بذلك، حتى إذا تم الأمر وأصبح حقًا مكتسبًا في الجامعة، علمت الوزارة أن الفتيات دخلن الجامعة!»[٢].

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذه المؤامرة الدنيئة كيف كانت نبتة خبيثة لا زالت تُثمر المر والعلقم في أرض مصر، ومن

---

(١) كان عميدًا لكلية الطب التي تقدمت لها الفتيات؛ فشارك في المؤامرة. توفي عام ١٩٤٧م. «الأعلام» للزركلي (٤/ ٢٥٢).

(٢) مذكرات هدى شعراوي، ص(٤٤٣-٤٤٤).

سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها[1].

* * *

(١) وللمزيد عن بدايات الاختلاط في الجامعة المصرية ينظر بحث «المرأة المصرية والتعليم الجامعي» للأستاذ عبدالمنعم الجميعي، ضمن كتاب «مائة عام على تحرير المرأة»، (١/ ٥٦٣ ـ ٥٧٥).

(٢)

بدايات السفور في تركيا

(٢)

بدايات السفور في تركيا

كانت المرأة التركية المسلمة كأخواتها المسلمات في بلدان العالم الإسلامي، تلتزم شرع الله في حجابها، ساترة وجهها عن الأجانب؛ إلى أن تأثر بعض الأتراك بالدعوة التغريبية في مصر؛ ثم بعد أن سيطر الحكم العلماني على تركيا؛ جاهروا بالدعوة إلى السفور.

يقول السلطان عبدالحميد ـ رحمه الله ـ في مذكراته متحدثاً عن بدايات هذه الدعوة التغريبية التي تريد غزو تركيا: «ينتشر الآن في الأوساط النسائية أفكار أوربية تدعو إلى حرية المرأة. وقد قامت زوجة شريف باشا في الآونة الأخيرة

بنشاط محموم للدعوة إلى الحرية النسائية، إنها دعوة غريبة، يجب وضع حد لها مهما كانت النتائج.

لقد كان الإسلام محقاً ومنطقياً إذ منع المرأة من العمل في المجال السياسي، وأمرها بالبقاء بعيدة عن الاختلاط بالرجال؛ فالاختلاط يثير شهوة الرجال، فتقلب قوتهم ضعفاً، وعزمهم خوراً. إن البيت هو المجال الطبيعي للمرأة، تربي أولادها وتساعد زوجها»[١].

ولما شعر الغيورون من الأتراك بخطر دعوة التغريب التي بدأت بالتحرك في بلادهم، قاموا بالاستعانة بعلماء مصر في التصدي لها؛ ومن ذلك نشرهم لكتاب «الاحتجاب» لكبير قضاة مصر، الذي رد فيه على كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين.

قال ناشر الكتاب: «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين. أما بعد؛ فإنه لما ظهر كتاب تحرير المرأة من نحو عامين، وكثر اللغط بشأنه، والحديث بما ورد فيه مختصاً بالحجاب

---

(١) مذكراتي السياسية، السلطان عبدالحميد، ص ٢٠٠

والاختلاط، خفنا أن ينتشر ما فيه من الأفكار في بعض الأقطار الإسلامية، فيأخذون بظاهرها، ولما كان إخواننا الأتراك أشد الناس احتراماً لعلماء مصر، وأحسنهم فيهم اعتقاداً، حتى أنهم يقدسون كلامهم كما يقدسون. قول كل عالم فقيه ارتبط بالدين الشريف، خفنا كذلك أن حسن ظنهم في علماء مصر ربما أدى للأخذ بكل ما يقال في مصر، ولذلك توسلنا إلى المرحوم قاضي قضاة مصر السابق: الشيخ جمال الدين أفندي؛ لما له من المكانة لدى سكان دار الخلافة وسعة الإطلاع في العلوم الدينية والعفة والورع، والأخذ بما في كتاب الله وغير ذلك من الفضائل التي يعرفها له كل من خالطه وجالسه، في أن يتصفح الكتاب المذكور ويبدي رأيه فيه من الوجهة الدينية، وأن يكتب عليه ما شاء باللغة التركية، حتى إذا كان رأيه موافقاً لما في الكتاب حضهم على الأخذ بما فيه، وإلا هداهم إلى الحكم الشرعي المستنبط من الكتاب والسنة؛ حتى لا يجوز على عقلهم غيره، فقبل رحمه الله ذلك مني»[1].

---

(١) الاحتجاب، (ص ٣-٤).

قال القاضي في رده على قاسم أمين: «إذا نظرنا إلى الماضي نرى أنه في مدينة استانبول قبل ثلاثين أو أربعين سنة، إذا أرادت امرأة الخروج إلى السوق ؛كانت أولاً تضع خماراً، ثم تكفّ عليها خماراً من شاش ثخين أبيض، ثم تلبس جلباباً طويلاً عريض الياقة من الجوخ في الشتاء ومن الصوف في الصيف، وبهذه الكيفية **ما كان يُرى من محل الزينة إلا عيني المرأة التي ترى طريقها بهما فقط**، ومن جلبابها الواسع ما كان يُعرف هيئة جسمها أبداً». إلى أن قال: «وأما الآن فإن كشف الوجه للنساء مباح، يرفعن منديلهن المقصود منه ستر وجههن على رؤسهن، ويعرضن شعورهن حتى رقبتهن وصدروهن لأنظار الرجال، والتدرج والترقي في هذا المبدأ المتهتك يصير - معاذ الله - سبباً لانطفاء نار الغيرة من الرجال، ومنشأ لتكاثر الابتذال والمسامحة في نسائنا، ويصير هذا الحال ضربة مهلكة لحياة الجمعية الإسلامية»[١].

قلت: ومن علماء الأتراك الذين تصدوا لدعوة كشف

---

(١) الاحتجاب، (ص ٤٦-٤٧).

الوجه: الشيخ مصطفى صبري - رحمه الله- آخر شيوخ الدولة التركية قبل استيلاء أتاتورك العلماني عليها. فقد كانت له صولات وجولات مع دعاة تغريب المرأة المسلمة في تركيا، وفي العالم الإسلامي. قال في كتابه «قولي في المرأة»: «فالسفور خرج اليوم عن معناه في أصل اللغة، **وهو الكشف عن الوجه**، وتحول إلى ما نراه من نصف التعري أو ثلثيه، والاختلاط في هذه الحالة بالرجال الأجانب، فنحن لا نجيزه لبلادٍ يهتم أهلها بعفة نسائهم، ونراه رائداً للفسق والفساد، ونتعجب من كُتَّاب اتخذوا الدعاية للسفور مبدءًا لهم، ثم نراهم الفينة بعد الفينة يشكون تهافت النساء على أنواع التبذل والاستهتار في المصايف، وعلى شواطئ البحر، واندفاع الفتيان والفتيات وراء الشهوة الجامحة!»[١].

وقال - رحمه الله - رادًا على قول إحدى النساء: «لم ينشد لنا نصيرنا قاسم أمين هذا الذي اخترعته المرأة وتفننت فيه، ولو كان يعلم الغيب لألقاها في غيابة السجن لا تخرج منه أبداً، أراد قاسم أن تتعلم المرأة وطلب مساواتها

(١) قولي في المرأة، ص ٣٥.

بالرجل»! ونحن نقف هنا وقفة فنقول للسيدة الكاتبة: بل هذا هو الذي نشده قاسم أمين وأضرابه من أنصار السفور، وكان كل من له عقل وخبرة بأهواء الرجال والنساء وميولهم الغريزية يعرف أن عاقبة السفور ستكون هذه المخازي؛ لأن فكرة السفور حصلت فينا تقليداً للغرب، وكنا عالمين بأن سفور المرأة الغربية غير مقتصر على كشف وجهها، ومما يدل على كوننا لم نتعظ بعد هذه التجارب المخجلة لدعاة السفور فينا ظننا بأن السفور في الغرب لا يتضمن تلك المخزيات المنافية للآداب والأخلاق، حتى أصبح كالعادة عند الذين يجلسون للوعظ والإرشاد من دعاة التجديد الذي فيه السفور وغيره أن ينبهوا على الفرق بيننا وبين الغربيين في الاستعداد للحرية، ويوصوننا بمراعاة التدرج إلى أن نبلغ مبلغهم في العلم والرقي! ولكن لا العلم والرقي، ولا أي شيء آخر يغلب الطبيعة البتة، فالسفور على حد انكشاف نساء الغرب - الذي هو قدوة الشرق اليوم- واختلاط المرأة بالرجال يكون لهما أثرهما الطبيعي، إلا في النادر الذي لا يبنى عليه الحكم، وليس التدرج في السفور، ولا الاستعداد له إلا تدرجاً في المفسدة، وإلا استعداداً لما ينجرّ إليه، فلا

تغرَّنَّكم كلمات دعاة السفور المموهة، والقيود الاحترازية التي ذكروها لتبرير دعايتهم»[١].

وقال ـ ردًا على كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»-:

«قرأتُ كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» فرأيته يشن الحرب على حجاب المرأة المسلمة وابتعادها من الرجال، مع الاجتهاد الماكر في توفيق هذه الحرب بقواعد الشرع الشريف. فهو يَظهر في مظهر المدافع عن السفور ـ بمعنى كشف الوجه ونبذ النقاب الذي لم يوجبه فقهاؤنا إلا لخوف الفتنة - وهذا مع علمه بأن السفور في عرف عصرنا خلاصته أو نتيجته التزيي بزي الغربيات إلى أن تصبح نساؤنا مثلهن كاسيات عاريات، كما أصبحن كذلك في الحالة الحاضرة التي تسع حتى مخاصرة الرجال النساء في الحفلات الساهرة.

وقد يُسمع من بعض الأفواه أن قاسماً لم يُرد هذه الحالة، وهي أفواه الغافلين عن أن دعوى السفور حدثت فينا مترجمة عن اقتراح جديد يدار تحت خطة منتظمة وضعها

---

(١) السابق، ص ٤١-٤٢.

طائفة من الرجال تقليداً للغرب، وهم كانوا على معرفة تامة بمقدمات الاقتراح وما تصل إليه تلك المقدمات من النتائج.. وكان قاسم ومُكبروه من هؤلاء العارفين لا الغافلين، ألا يرى أن الذين احتفلوا بذكراه الثلاثين لا يرون أي خلاف بين ما سعى له الرجل وبين حالة نسائنا الحاضرة، حتى إن ابن المحتفَل بذكراه يطلب ثواباً من الله لأبيه على سنه هذه السنة الحسنة وثواباً جارياً لا انقطاع له مشتقاً من ثواب العاملين والعاملات بها إلى يوم القيامة!!

ثم لا يخلو الكتاب نفسه من تعمد القضاء على الخواص المميزة للمرأة المسلمة، وإفساد حالتها تحت ستار السعي لمصلحتها في حدود الشرع الإسلامي، فيروج لها المعاشرة المختلطة بالرجال، وربما يعد اختلاط الفتيات بالفتيان لزاما، ليحصل التعارف بين الفريقين، فلا يكون الزواج مجازفة عمياء ولا مبنية على معرفة الوسطاء الأجانب، وإن كان هؤلاء الأجانب من آباء الطرفين أو أمهاتهما!

أما الحجاب المعروف في الإسلام فيراه قاسم مختصاً بنساء النبي ﷺ، ويستدل على هذا الاختصاص بقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، بناء على أن ضمير الجمع المؤنث راجع إلى أزواج النبي ﷺ؛ فتكون الأوامر والنواهي المذكورة الواردة بشأن أزواجه ﷺ لا تجاوز بطبيعة الحال غيرهن. هذا ما يحاول أن يقوله مؤلف «تحرير المرأة».

ونحن نقول: إن المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ امتيازهن المذكور قبله في قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وإلا فليس المراد من الأوامر والنواهي المذكورة بعد قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهي: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، أنها خاصة بأزواج النبي ﷺ لا تجاوز غيرهن من النساء المسلمات! فيُباح للغير أن يخضعن بالقول ليطمع الذي في قلبه مرض، وأن لا يقلن

قولاً معروفاً، وأن لا يقَرنّ في بيوتهن، ويتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، ولا يُقمن الصلاة، ولا يُؤتين الزكاة، ولا يُطعن الله ورسوله!!

وقياساً على هذا: ليس المراد من قوله تعالى في آية أخرى من آيات سورة الأحزاب خطاباً للمؤمنين في معاملة أزواج النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ أن السؤال من وراء الحجاب خاص لأصحاب النبي ﷺ مع أزواجه، وأن المحافظة على طهارة القلوب ليست ضرورية لعامة المسلمين والمسلمات!

فظهر من هذا البيان أن الأحكام المذكورة في سورة الأحزاب المتعلقة بحجاب أزواج النبي ﷺ لم تكن خاصة بهن؛ بناء على أن علل الأحكام المذكورة في تلك الآيات كلها تجري في غيرهن أيضاً. لكن صاحب «تحرير المرأة» يغالط الأفهام والعقول لترويج هواه، ويحرِّف الكلم عن مواضعه في تفسير آيات الله.

وهناك آية أخرى في سورة الأحزاب أيضاً تنقض ما

ادعاه قاسم أمين من اختصاص نساء النبي بواجب الاحتجاب، وتنص على أن هذا الواجب عام لجميع نساء المؤمنين لا فرق بين نسائه ونسائهم في ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾، والجملة الأخيرة من الآية المبينة لفائدة الحجاب تبين أيضاً عدم الفرق المذكور، وهي أن يُعرف كونهن عفيفات غير مائلات وغير مميلات؛ فيسلمن من مراودة الفساق، ويكون احتجابهن علامة لعدم رغبتهن في تلك المراودة التي يعبر عنها القرآن بالأذى، والتي تكون أذى في حق نساء وبنات المؤمنين كما كانت أذى في حق نساء النبي ﷺ وبناته. وفي نصب حجاب المرأة في هذه الآية - علامة لعدم رغبتها في مراودة الفساق من الرجال- إشارةٌ بالغة - على رغم قاسم أمين- إلى شدة لزوم هذه العلامة للمحصنات من النساء.

وفي كتاب قاسم كثير من الكلمات الحقة التي أريد بها الباطل: انظر قوله ص ٥٦: «لو أن في الشريعة نصوصًا تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين

لوجب عليّ اجتناب البحث ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص، مهما كانت مصغرة في ظاهر الأمر(!) لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة، لكنا لا نجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم(!) فاستحسنوها وأخذوا بها، وبالغوا فيها، وألبسوها لباس الدين؛ كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها. ولذلك لا نرى مانعًا من البحث فيها، بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها».

أقول: كل باحث حادث في الإسلام يعرف أن فيه حجاباً للمرأة يحبذه من يحبذه من المحافظين على تقاليد دينه ويكرهه من يكرهه من هواة الغرب السافر، أعني أن المعروف كون السفور حدثاً حدث في بعض المسلمين تقليداً للأجانب عنهم، ثم أخذ ينتشر انتشاراً يعلم الله منتهى مداه؛ ولم يقل أحد قبل قاسم إن الحجاب حادث في المسلمين على أي شكل من أشكاله، أخذوه من عادات أمم أخرى وتعوَّدوه وبالغوا فيه، ثم نسبوه إلى دينهم والإسلام

براء من الحجاب! فهذا قلب للأمر ومضادة للواقع. وكان له على الأقل من منطق الإنصاف أن يقول: أخذوه من نساء نبيهم، اللاتي اعترف فيما سبق بوجوده فيهن، ووجوبه عليهن، نصاً في القرآن ـ ولو مع دعوى اختصاصهن به ـ ثم تعودوه وبالغوا فيه ونسبوه إلى الدين.

ثم قال قاسم أمين: «جاء في الكتاب العزيز: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ ﴾، أباحت الشريعة في هذه الآية أن يظهر بعض أعضاء المرأة من جسمها أمام الأجنبي عنها، غير أنها لم تُسمِّ تلك المواضع».

أقول: هذه آية الحجاب للنساء الذي يسعى مؤلف «تحرير المرأة» أن ينكر وجوده في الإسلام، مهما كانت الآية مجملة في تعيين محل الكشف المستثنى من الاحتجاب. فالقرآن صريح في فرض الحجاب على النساء عامة، والتفريق بين الجنسين في اللبس، على أن تكون أعضاء المرأة أكثر تستراً أمام الأجنبي عنها من أعضاء الرجل، لا أكثر انكشافاً منها كما هو الواقع الآن في الأمة الإسلامية، وخاصة في مصر بعد النهضة التي أدى إليها تحرير المرأة ملهماً من كتاب قاسم أمين المسمى باسمه نفسه.

وفي الآية كلمة هي قوله تعالى ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ الدال على مبلغ لزوم الحجاب للمسلمات إلى حد كونهن ممنوعات من إبداء زينتهن لنساء الأجانب عن الإسلام.. كلمة لو كان قاسم أمين أصغى إليها لوجد فيها عظة بالغة تُعارض كلمته وتناهض نهضته، كلمة تكفي في إثبات أن كتابه وما يرمي إليه في واد ومرمى كتاب الله في واد بعيد عنه كل البعد، وهو - أي قاسم نفسه - يُثبت في كتابه هذه الكلمة من كتاب الله التي تكفي وحدها للقضاء على كتابه.

ولم يَفُتْ مؤلف «تحرير المرأة» ما يقع فيه كثير من

الكتاب العصريين، ولا يَسلم منه علماؤهم أيضاً، من غلط الفهم لمعنى القرآن الكريم في مسألة تعدد الزوجات، حيث يرتِّبون قياساً منطقياً مؤلفاً من مقدمتين كلتاهما مأخوذة من كتاب الله؛ أعني قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾، وقوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وكلا القولين في سورة النساء، فيلغون بهذا القياس الجواز الشرعي المعروف في تلك المسألة المأخوذ هو الآخر أيضاً من كتاب الله متصلاً بالقول الأول مما قبله - أعني قوله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ـ ومعمولاً به من صدر الإسلام إلى يومنا هذا. ونحن نحاشي السابقين من المسلمين أن يغفلوا عما تنبه له كتاب هذا الزمان من معنى كتاب الله، المؤدي إلى الهدم بعد البناء من حيث لا يشعر، فليبحث هؤلاء الكتاب عن عدم الشعور في أنفسهم، وليقرأوا ما بعد الآية الثانية الهادمة أو بالأصح التي يزعمونها الهادمة، وهو ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾.

أما المحاذير الاجتماعية التي قلما يخلو عنها تعدد

الزوجات والتي أحصاها قاسم في كتابه فنحن نعرفها أيضاً، ونعرف مع هذا انتشار الزنا في البلاد المعرضة عن هذا المبدأ الإسلامي تفادياً من تلك المحاذير. فمبدأ تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام لابد أن يسد فراغه الزنا، لأن من يرى نفسه من الرجال في حاجة إلى امرأة ثانية، فهو يحصل عليها خليلة إن لم يحصل عليها حليلة. ومن درس مسألة تعدد الزوجات لينتهي إلى منعه، فليدرسها في المقارنة بين النكاح والسفاح، ثم ليختر أهون الشرين!

هذا كلام وجيز قاس ولكنه كلام صادق، ولي كلام هنا غير هذا الكلام القاسي؛ وهو أن حقيقة المسألة - أعني مسألة تعدد الزوجات - تقسيم النساء اللاتي فضَلن من ذوات الأزواج؛ إما لكثرة المرأة بالنسبة إلى الرجل أو لعدم رغبة طائفة من الرجال في الزواج.. فضلن واحتجن إلى الاتصال بالرجال بدافع الغريزة الجنسية أو لكسب النفقة، فحقيقة المسألة تقسيم هؤلاء النساء بين الرجال المتزوجين أزواجاً ثانية للمحافظة على عفتهن وعفة الراغبين فيهن بغير واسطة الزواج، فبالنظر إلى هذه الحقيقة يعود مبدأ تعدد الزوجات إلى مصلحة المرأة، ويخدم المحافظة على كرامة الجنس،

والذين يعتبرون تعدد الزوجات ضربة قاسية على شعور المرأة وكرامتها يقصدون بالمرأة: الزوجة الأولى التي هي بعض النساء، فيحتكرون كل المحافظة على الشعور والكرامة لهذا البعض على حساب البعض الأخرى، التي هي عرضة لضياع عفتها قبل المحافظة على شعورها وكرامتها.. بل إن اجتماع الرجل بالمرأة الثانية من طريق الاستنكاح أدنى إلى الاحتفاظ بكرامة الزوجة الأولى أيضاً من اجتماعه بالمرأة الثانية من غير ذلك الطريق؛ وقد كنت أنا عبَّرت في شعر نظمته في قديم الزمان باللغة التركية في موضوع تعدد الزوجات عن المرأة التي تحتمل أن تشاركها في زوجها خليلةٌ ولا تحتمل أن تشاركها فيه زوجته الثانية، عبرت عن هذه المرأة بامرأة ذات قرنين!

أما القول بالتسوية بين الرجل والمرأة في اختصاص كل منهما بالآخر بعد أن كانا زوجاً وزوجة، والاعتراض على مبدأ تعدد الزوجات بلزوم أن يكون من حق المرأة أن تجمع بين زوجين إذا كان من حق الرجل أن يجمع بين الزوجتين - كما أشار إليه مؤلف «تحرير المرأة» - فمنشأه عدم إدراك الفروق الكبيرة بين فطرة الرجل وفطرة المرأة، وقد بينت

تلك الفروق في «قولي في المرأة» المنشور قبل سنين.

ولو لم يكن فرق ما بين الجنسين إلا أن الإلقاح الذي هو أهم مقاصد الزواج يقيد الزوجة على طول مدة الحمل والوضع والإرضاع، ولا يقيد الزوج أصلاً، وإن شئت فقل: إن الرجل الواحد يستطيع أن ينتج من الأولاد ما لا تستطيعه مائة امرأة، فهو يعادل في القيام بوظيفة الإنتاج أكثر من مائة امرأة... لو لم يكن غير هذا لكفى فارقاً بين الجنسين. فإن كانت كثرة التناسل مما يُرغب فيه لتقوية أمة بإكثار أفرادها من أبناء الحلال ـ ولابد أن تكون ـ فلا طريق لها سوى تعدد الزوجات.

كتاب قاسم أمين يحتاج إلى تأليف مستقل للرد على سخافاته، وإن كان «قولي في المرأة» الذي ما كنت مطلعاً عند تحريره على «تحرير» قاسم يسد كثيراً من الحاجة، وإنما أشرت هنا إلى مواضع خروجه على الأحكام المنصوص عليها في القرآن ردًا لدعوى مسايرته في كتابه مع كتاب الله. وكم فيه مع الخروج الصريح على الأحكام الشرعية من خروج على بداهة العقول السليمة في سبيل استفزاز السذج.. انظر ما ادعاه من أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية

وجهه، ثم قال: «عجباً لِمَ لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن؟ هل اعتُبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة، واعتُبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه، واعتُبرت المرأة أقوى منه في كل ذلك؟ حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال، ومنُع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط في الفتنة بأية امرأة تعرضت له؟ مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق؟ إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكمل استعداداً من الرجل، فلم توضع حينئذ تحت رقه في كل حال؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم هذا التحكم المعروف؟». اهـ كلام قاسم.

يُفهم من هذه الأقوال أن مؤلف «تحرير المرأة» غافل أو متغافل حتى عن أبسط ما بين الرجال والنساء من فروق الفطرة، فهو بنى كتابه على أساس المساواة بين الجنسين، فعلى رأيه يلزم أن يُخاف على الرجال أيضاً من اعتداء النساء على عفتهم إن صح الخوف على النساء من اعتداء الرجال

على عفتهن، وهذه المساواة تقتضي كونه منكراً حتى لصحة ما هو المعروف من اعتبار الرجل فاعلاً والمرأة قابلة في الفعل الجنسي الحاصل باشتراكهما. فعند وقوع الشكوى من أي رجل بأنه اعتدى على امرأة، يكون من حق ذلك الرجل على رأي قاسم أمين أن يدعي كون الاعتداء عليه من جانب المرأة، ويصح شك القاضي في تعيين المكْرِه والمكْرَه منهما!! بناء على أنه كما يُخاف الفتنة على النساء من الرجال تخاف عليهم منهن، فلماذا تحذر المرأة الرجل وتستخفي منه، ولا يحذر الرجل المرأة ويستخفي منها؟ فالمؤلف لم يلتفت في تمشية مغالطاته في الجمل المذكورة آنفا إلى موقف الذكر والأنثى في أي نوع من الحيوان، وتضمن اعتراضه على تخصيص الحجاب بالمرأة دون الرجل من غير تفريق بين حسانها وقباحها، اعتراضاً على القرآن في قوله ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾... الآية التي أوردها المؤلف أيضاً وسعى في إلغاء أحكامها.. ولا أدري لماذا لم يعترض على اختصاص المرأة بالزينة، الذي يخل

بالمساواة المدعاة، والذي لم تنج منه أوربا الواصلة إلى شوط يحبذه المؤلف في التسوية بين الرجال والنساء والذي كان ينبغي أن يوقظه من غفلته في دعوى المساواة بين الرجل والمرأة، إن لم يوقظه ما هو الواقع من تحكم الرجال على النساء بحق أو بغير حق؟ بل حسبُ انهماك المرأة في الزينة واختصاصها به في الشرق والغرب من غير فرق بين حسانها وقباحها، مبطلا لما احتشده قاسم أمين في كتابه من المغالطات لإبطال حجاب المرأة المسلمة. فمعنى تزين النساء وتبرجها في مرأى الرجال سواء كانوا بعولتهن أو غيرهم، أن فيهن الميل الطبيعي إلى استمالة قلوب الرجال وأنظارهم، وهذا الميل إلى الاستمالة هو جُل ما عندهن من السعي إلى الفتنة المتوقعة الحصول بين الجنسين؛ أما الحركة الفعلية لحصولها فإنما يقوم بها الرجال. فلهذا وضعت الشريعة الإسلامية الحجاب حاجزاً دون استمالة المرأة التي يقع منها التحريك ثم تقع الحركة من الرجل، وكان منع الفتنة في أولى المراحل المؤدية إليها أسلم وأسهل من منعها في المرحلة الثانية.

وانظر قوله ص ٨٩-٩٠: «لعل يظن المصريون أن رجال

أوربا مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغاً مكّنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا وأن تلك النفوس تخاطر كل يوم بحياتها في طلب العلم والمعالي وتفضّل الشرف على هذه الحياة. هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التي نُعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة وحفظ عفتها؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه؟ كلا. وإنما الإفراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن إليها نفوسهم، ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق». وقوله ص٩١: «وقبل أن أختم الكلام في هذا الباب أرى من الواجب علي أن أنبه القارئ إلى أني لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة والنساء على ما هن عليه اليوم؛ فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لايتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي، وإنما الذي أميل إليه هو إعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير، فيعوّدن بالتدريج على الاستقلال، ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس، لا ثوب يختفي دونه الجسم».

وأنا أقول: إن المؤلف وإن كان يتظاهر في كلامه بالنظر إلى بعض القيود الاحترازية التي اكتمن وراءها أنه يشكو من الإفراط في الحجاب لا من الحجاب مطلقا.. ولكن المفهوم واضح من مدح الأوربيين الذين تركوا الحجاب، بكمال العقل والتهالك في اقتناص الشرف، أن مقصوده رفع الحجاب بالمرة كما رفعه الأوربيون وبلغوا منه مبلغ الإفراط في الكشف، بدلاً من الإفراط في الحجاب، وإن كان يريد الوصول إلى مبلغهم بالتدريج والتبكير في اختلاط الجنسين الذي هو من جملة ما عُني به وحث عليه في كتابه، فهذه الأسطر المنقولة من كلامه تهدم كل ما في كتابه من تظاهر الاحتياط في رفع الحجاب والارتباط بنصوص الشرع الإسلامي في تقديره، فهو يبتغي اتخاذ الأوربيين فيما اختاروا لنسائهم قدوة للمسلمين. وإذا كان القارئ يقتدي بمؤلف «تحرير المرأة» المقتدي بالأوربيين ويصدِّق رأيه في هذه المقدمات التمهيدية، فلابد أن يقول تعقيباً لقوله «هل يظن المصريون أن الأوربيين يتركون الحجاب لو رأوا خيراً فيه: وهل يكشفون أظهر نسائهم إلى أردافهن علاوة على مناكبهن ونحورهن وسحورهن وسيقانهن إلى أفخاذهن ثم

يخاصرونهن ويراقصوهن أزواجاً أزواجاً في الحفلات الساهرة لو لم يروا خيراً في تلك الكشوف والمخاصرة والمراقصة؟ بل يقول: لو كان في الإسلام خير لرآه الأوربيون الممتازون علينا بكمال العقل واكتشاف الحقائق واختاروه ديناً لهم!!

وهذا دين قاسم أمين الذي ادعى التمسك به والتمشي معه في تحرير المرأة. وما أغلظ غشاوة الغفلة في أعين الذين قالوا تعنيفاً لما وصلت إليه حالة نسائنا الحاضرة من الاستهتار وخلع العذار مع الإزار: «لم يكن هذا ماقصد إليه قاسم أمين»! إن لم يتكذبوا في قولهم هذا.

أما ما أوصى به الرجل من التدريج في رفع الحجاب وتعويد المرأة السفور بإعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير وتعويدهن على الاستقلال، حتى يتأسس فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس، لا ثوب يختفي دونه الجسم.. فهذه الوصايا الواقية إذا جُمعت مع اتخاذ الأوربيين الذين اعترف لهم بأنهم أعقل منا وأرشد، قدوتنا وأساتذتنا في معاشرة الرجال والنساء و مجالستهما، ثم نظر إلى احتواء مجالس المعاشرة الأوربية التي تكون في النتيجة نماذج

امتثال لنا بلا مراء ولا جدال، مخاصرةَ النساء الأجانب ومراقصتهن نصف عاريات أو أكثر من النصف.. كما بدرت بوادرها اليوم، فدعوى العفة والنزاهة في هذه المعاشرة تذوب وتتبخر مع ماء الحياء في وجوه الأزواج الراقصة، ووجوه الحضّار المشاهدين الذين لا ينقصهم بعولة تلك النساء أو أقاربهن!

فتلك المجالس والمحافل وضعتها أوربا المدنية الفاجرة على أن تكون محافل تمهيد وتعويده للإباحة الغريزية البشرية التي بمزيناتها ومغرياتها وطريقها المعبدة الشيطانية، تتقدم الإباحة البهيمية وتجعل ما يتظاهر به المتظاهرون من أحاديث المحافظة على العفة وطهارة الأخلاق في طيات تلك المحافل، أكذب من حديث خرافة.

وقد انجلى من هذا البيان المستند إلى تصريحات قاسم أمين أمور:

الأول: أنّا مقلدو أوروبا في السفور، وما كنا مقلدي أمة في الحجاب كما ادعى قاسم.

والثاني: أن ما يظنه الغافلون من أن قاسماً لم يُرد هذا السفور الخليع، لا أساس له من الصحة.

والثالث: أن قاسماً والأوربيين الذي قدمهم لنا قدوة، ليسوا بغافلين عن أن السفور وما يلابسه من الملامسات بين الجنسين لا مناص من تطوره وتأديه إلى هدم صرح العفة والنزاهة، بل إنهم يهدفون بتأسيس هذه الحياة المختلطة إلى التخلص من تلك المبادئ القديمة التي باعدت بين الجنسين، وحالت دون استفادة كل منهما بالآخر باسم الديانة، والدين براء من هذه الحيلولة كما نص قاسم فيما سبق على كون الدين براء من وضع الحجاب ورفض السفور، وقد حكيناه فيما سبق.. وكان معنى كون الدين براء من وضع الحاجز بين الجنسين أنه براء من التزام العفة والنزاهة؛ لما عرفتم من وضوح الطريق بين السفور الخليع والحياة المختلطة، وبين انهيار صرح العفة والنزاهة. ومعنى المعاني التي يعنيها أعداء الحجاب والعفة والنزاهة من براءة الدين عن التزامها ـ مع وضوح هذا الالتزام للبصائر والأبصار ـ أن الدين لا يقام له ولعقائده القديمة وزن عند أصحاب العقول الجديدة، فلهذا يراني القارئ على طول هذا الكتاب أبذل كل جهد في تثبيت عقائد الإسلام، وأعدّه أهم أسس الإصلاح وأقدمها، ولله الأمر والحمد من قبل ومن

بعد»[١].

قلت: وممن ردَّ على دعاة السفور وكشف الوجه من علماء الأتراك: الشيخ محمد زاهد الكوثري التركي في مقالاته[٢]، قائلاً - بعد إيراده لأدلة الحجاب الشرعي-: «ولتلك النصوص الصريحة في وجوب احتجاب النساء، تجد نساء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في غاية المراعاة للحجاب منذ قديم، في البلاد الحجازية، واليمنية، وبلاد فلسطين، والشام، وحلب، والعراقين، وبلاد المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى، وصعيد مصر، والسودان، وبلاد جَبَرت، والزيلع، وزنجبار، وبلاد فارس، والأفغان، والسند، والهند.... وليس بقليل بمصر من أدرك ما كانت عليه نساء مصر كلهن من ناحية الحجاب، **قبل عهد قاسم أمين، داعية السفور في عهد الاحتلال**»[٣].

قلت: أما في عهد أتاتورك العلماني فقد بلغت دعوة

---

(١) موقف العقل والعلم من رب العالمين، (١/ ٤٨٥-٤٩٦).

(٢) ص(٢٤٥- ٢٥٠).

(٣) ص(٢٤٩).

التغريب أقصاها؛ حيث شرّع - عليه من الله ما يستحقه- فانوناً لنـزع حجاب المرأة المسلمة، وراقب تنفيذه، وعاقب مخالفيه، وشنق معارضيه. وقال في تسويغ حربه على الحجاب: «لقد رأيت كثيرات من أخواتنا **يغطين وجوههن إذا ما رأين غريباً** يتقدم نحوهن، ومن المؤكد أن هذا الغطاء يضايقهن كثيراً في الحر»!!

وقام عام (١٩٢٥م) بإجبار تركيا بأكملها - وليس المرأة فقط- على هجر الإسلام كلية؛ حتى الحرف الذي تكتب به اللغة التركية متشابهاً مع لغة القرآن، أما نزع حجاب المرأة التركية فقد تم بالإرهاب والإهانة في الطرقات، حين كان البوليس يقوم بنـزع حجاب المرأة التركية بالقوة، وهكذا كان نزع الحجاب[١].

* * *

(١) عن: «عودة الحجاب»، (١/ ٢٠٥-٢١٤)، وفيه توثيق ما نقلت.

(٣)

بدايات السفور في سوريا



(٣)

بدايات السفور في سوريا

يُعَد المؤرخ الشامي عبدالعزيز العظمة - رحمه الله - (ت١٩٤٣) من المؤرخين المخضرمين الذين أدركوا بلادهم قبل الاستعمار الفرنسي وأثناءه، حيث سجل في كتابه الشهير «مرآة الشام» التغيرات التي طرأت على المجتمع بسبب الاستعمار النصراني، ومن تقييداته التي تهمنا: قوله[١]: «كانت النساء عند خروجهن من دورهن يتأزرن بمآزر بيضاء تسدل إلى وجه القدم، وكنّ يسترن وجوههن ببراقع - مناديل ملونة - لا

---

(١) (ص ٧٤).

يرى من ورائها الناظر شيئاً، تعلوهنّ الحشمة والوقار، ولا يجرؤ أحد على الدنوّ منهن ولو كان من ذوي القربى، لأن تكلم الرجل مع المرأة في الأسواق كان يعدّ من المعايب».

ثم قال[1] مبينًا تدرج السفور في بلاده:

«ازدادت النسوة في التبرج حتى خلع بعضهن الحَبرة واستعاض عنها بالمعطف (بالطوسكاب) المختلف الألوان، ووضعن فوقه على رؤوسهن قطعة من النسيج الرقيق يسدلنها على وجوههن مقام البرقع، ووجودها وعدمه سواء، ثم أخذ البعض يتدرج حتى خلع الحبرة بالمرة، وبرزن إلى الأسواق سافرات بملابس الزينة وعلى رؤوسهن خمر رقيقة من الحرير يحاولن أن يسترن بها شعورهن - دون الغرة والجبين- وهيهات ذلك.

والباعث على هذا أولاً: دعاية سرت إلينا من مصر والروم بدعوى أن التستر غير مشروع، وأن منشأه عادة

---

(١) (ص ٧٥).

انتقلت إلينا من الأعاجم[1] فاعتصم بها الرجال وأكرهوا النساء على استعمالها ظلماً وجوراً!!

ثانياً: انحطاط الأخلاق وتطور الآداب بصورة لم نكن نؤملها، ولا من الأغيار، فضلاً عن أنفسنا نحن المأمورون بالحجاب، وإخفاء الزينة وعدم التبرج، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وقال أيضاً: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ إلى غير ذلك من الأوامر الإلهية المتحتم على المسلم اتباعها.

وقد أصبحنا - والعياذ بالله - نرى كل قديم منبوذاً ولو

---

(١) لاحظ أن المُفسدين في كل بلد يُرددون أن الحجاب مجرد «عادة» أخذت من غيرنا!

كان نافعاً، وكل حديث مرغوباً ولو كان ضاراً، بلا تروّ ولا تمييز ولا منطق ولا محاكمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الأيام الأخيرة قام بعض الرجال وأخذوا يحثون المرأة ويحرّضونها على خلع الحجاب والتمتع بنعمة السفور التي يعدّونها من لوازم التمدن، ونهض غيرهم وأبرق وأرعد، ونادى بالويل والثبور داعياً إلى إعادة الحجاب إلى ما كان عليه، وما زالت حرب الأقلام قائمة بين الفريقين.

ومن دواعي الأسف أن رؤساء حكومتنا هم من القسم الأول الذين يهيئون للمرأة أسباب السفور خلافاً لما كان يتصوره ويتأمله الناس ويتوهمونه من تمسكهم بأهداب الدين وتصلبهم فيه.

ونحن من القائلين بالحجاب، وما زال ـ والحمد لله ـ السواد الأعظم من الأمة على هذا الرأي، وأخيراً نهض الشيخ هاشم الخطيب وأخذ يعظ الناس ويحث النسوة على التستر المشروع، ويحبب إليهن الإزار الأبيض الذي كنّ يستعملنه فيما سبق، ويشبههن بطيور الجنة، وقد أقبلت عليه الكثيرات، وشرعن يتأزرن بالمآزر البيضاء **ويضعن على وجوههن الخُمُر ـ المناديل** ـ ورعاً وتقوى». انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وخير من يصور لنا حال المجتمع السوري، وتدرجه في خطوات التغريب هو الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ الذي عاصر تلك الحركة منذ بدايتها إلى وفاته، وكتب عنها كثيراً في «ذكرياته»، وأنقل مهمات منها تتعلق بهذا البحث.

قال – رحمه الله –: «ما كان أهل الشام قبلهم كالصحابة الأولين، ولا كانوا كالتابعين، وكان قد دخل عليهم في دينهم كثير من البدع والمحدثات، ولكن ما كان فيهم ملحد يُظهر إلحاده، ولا سافرة تعلن سفورها، ولا عاص يجاهر بمعصيته، فضلاً عن أن يفخر بها، أو يفلسفها ويدافع عنها.

وكانت النصرانيات واليهوديات من أهل الشام، يلبسن قبل الحرب الأولى الملاءات الساترات كالمسلمات، وكل ما عندهن أنهن يكشفن الوجوه ويمشين سافرات، أذكر ذلك وأنا صغير.

وجاءت مرة وكيلة ثانوية البنات المدرسة سافرة، فأغلقت دمشق كلها حوانيتها، وخرج أهلوها محتجين متظاهرين، حتى روعوا الحكومة، فأمرتها بالحجاب، وأوقعت عليها العقاب، مع أنها لم تكشف إلا وجهها، ومع

أن أباها كان وزيراً وعالماً جليلاً، وكان أستاذاً لنا»[١].

وقال - متحدثاً عما فعله تلاميذ المستعمر الذي رحل عن سوريا بعد أن اطمأن لوجود من يحقق أهدافه-: «إن دمشق التي عرفناها تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة، شهدت يوم الجلاء بنات السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن، تهتز نهودهن في صدورهن، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة... وشهدت بنتاً جميلة زُينت بأبهى الحلل، وألبست لباس عروس، ورُكبت السيارة المكشوفة وسط الشباب...

قالوا: إنها رمز الوحدة العربية!! ولم يدر الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هي في تقديس الأعراض لا في امتهانها، وكان في العرض مناظر كثيرة من أمثال هذا المنظر، قالوا: إنها لوحات حية تعبر عن الفرح والسرور»[٢].

وازداد الانحدار وتتالت المصائب، وضعف أهل الدين بتنازعهم واختلافهم، واشتغال علمائهم بفروع الفروع من

(١) ذكريات علي الطنطاوي، (٥/ ٢٢٥-٢٢٦).
(٢) السابق، (٥/ ٢٣٨ -٢٣٩).

أمر دينهم، وغفلتهم عن الأصول التي لا تقوم الفروع إلا عليها، وخلا الميدان للذين يريدون أن يطبقوا فينا قانون الشيطان، قانون إبليس، وأول مادة في هذا القانون، كما تعرفون: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾.

فبعد أن كانت النصرانيات واليهوديات يتخذن الملاءات، وبعد أن كانت دمشق تغلق حوانيتها وتخرج المظاهرات فيها لأن وكيلة ثانوية البنات جاءت سافرة عن وجهها، وصلت الطالبات إلى ما رأينا من التكشف والاختلاط وتلك المنكرات»[1].

ثم تحدث عن عمل الشباب الذين هالهم ما رأوا من فشو التبرج والاختلاط بعيد الجلاء في دمشق، البلد العربي المسلم، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة، ويردون إليهم الناس؛ لأن ديار الشام لا تزال متمسكة بدينها، ولا يزال نساؤها بالحجاب الساتر، ومشت الأمور في طريقها، وكادت تصل إلى غايتها.

(١) السابق، (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

ولكن دعاة الفجور لم يُرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة، وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب، وإباحة الاختلاط[١].

وقال - رحمه الله-: «أما الجانب الآخر من المصيبة.. فهو نزع حجاب البنات، والسعي الدائب لاختلاط الشبان بالشابات، حتى كُشفت العورات، وصار بعض المدارس كالمراقص والملهيات، وصار الرقص، لا الرقص الرياضي، بل الرقص العادي مادة من المواد المقررات، تُجبر على تعلمه الطالبات.

إي والله العظيم، ما أقول إلا ما وقع، لا أسير وراء خيالي، ولا أفتري على الناس الكذب.

لم نصل إلى هذا في يوم واحد، بل كانت خطة مرسومة، كانت فصلاً من كتاب محاربة الإسلام.

لقد حاقت بالإسلام مصائب، وحلت به نكبات: الردة التي كانت بعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، حيث رجع أكثر العرب عن الاتباع الكامل

(١) السابق، (٥/ ٢٤٧).

للإسلام؛ فمنهم من تبع متنبئاً كذاباً، وترك الدين الحق، ومنهم من أراد أن يهدم ركناً من الأركان التي يقوم عليها بنيان الإسلام، فيمنع الزكاة، وظن بعض خصوم الإسلام أنه انتهى، ولكن الإسلام عاد بحمد الله أقوى مما كان.

ثم جاءت سلسلة طويلة من المصائب التي تعرفونها، وما أنشأت هذا الفصل لبيانها، ولكن أشير إليها لأذكركم بها: الفتن الداخلية التي أثارها ابن سبأ، اليهودي المتنكر بلباس الإسلام، ثم الحروب الصليبية، وهجمات المغول والتتر، وما تعرفون من أمثال ذلك وأمثاله كثير، ولكن الإسلام كان ينتفض فيلقي عنه ما علق به، ويشفى مما أصابه، ويعود قوياً محفوظاً بحفظ الله»[1].

أما عن بدايات الاختلاط فقال ـ رحمه الله ـ: «أما الحرب التي تواجه الإسلام الآن فهي أشد وأنكى من كل ما كان، إنها عقول كبيرة جداً، شريرة جداً، تمدها قُوى قوية جداً، وأموال كثيرة جداً، كل ذلك مسخَّر لحرب الإسلام على خطط محكمة، والمسلمون أكثرهم غافلون.

---

(١) السابق، (٥/ ٢٦٨)

يَجِدُّ أعداؤهم ويهزلون، ويسهر خصومهم وينامون، أولئك يحاربون صفاً واحداً، والمسلمون قد فرَّقت بينهم خلافات في الرأي، ومطامع في الدنيا.

يدخلون علينا من بابين كبيرين، حولهما أبواب صغار لا يُحصى عددها، أما البابان الكبيران فهما باب الشبهات وباب الشهوات. أما الشبهات فهي كالمرض الذي يقتل من يصيبه، ولكن سريانه بطيء وعدواه ضعيفة. فما كل شاب ولا شابة إذا ألقيت عليه الشبه في عقيدته يقبلها رأساً ويعتنقها.

أما الشهوات فهي داء يمرض وقد لا يقتل، ولكن أسرع سرياناً وأقوى عدوى، إذ يصادف من نفس الشاب والشابة غريزة غرزها الله، وغرسها لتنتج طاقة تستعمل في الخير، فتنشيء أسرة وتنتج نسلاً، وتقوي الأمة، وتزيد عدد أبنائها، فيأتي هؤلاء فيوجهونها في الشر، للذة العاجلة التي لا تثمر. طاقة نعطلها ونهملها ودافع أوجد ليوجه إلى عدونا، لندافع بها عن بلدنا، فنحن نطلقها في الهواء، فنضيعها هباء، أو يوجهها بعضنا إلى بعض.

هذا هو باب الشهوات وهو أخطر الأبواب. عرف ذلك خصوم الإسلام فاستغلوه، وأول هذا الطريق هو الاختلاط.

بدأ الاختلاط من رياض الأطفال، ولما جاءت الإذاعة انتقل منها إلى برامج الأطفال فصاروا يجمعون الصغار من الصبيان والصغيرات من البنات.

ونحن لا نقول أن لبنت خمس سنين عورة يحرم النظر إليها كعورة الكبيرة البالغة، ولكن نقول أن من يرى هذه تُذَكِّرُهُ بتلك، فتدفعه إلى محاولة رؤيتها.

ثم إنه قد فسد الزمان، حتى صار التعدي على عفاف الأطفال، منكراً فاشياً، ومرضاً سارياً، لا عندنا، بل في البلاد التي نعدُّ أهلها هم أهل المدنية والحضارة في أوربا وأمريكا.

كان أعداء الحجاب يقولون أن اللواط والسحاق، وتلك الانحرافات الجنسية سببها حجب النساء، ولو مزقتم هذا الحجاب وألقيتموه لخلصتم منها، ورجعتم إلى الطريق القويم. وكنا من غفلتنا ومن صفاء نفوسنا نصدقهم، ثم لما عرفناهم وخبرنا خبرهم، ظهر لنا أن القائلين بهذا أكذب من مسيلمة.

إن كان الحجاب مصدر هذا الشذوذ، فخبروني هل نساء ألمانيا وبريطانيا محجبات الحجاب الشرعي؟ فكيف إذن نرى هذا الشذوذ منتشراً فيهم حتى سَنّوا قانوناً يجعله من

المباحات؟

ثم إن أصول العقائد، وبذور العادات ومبادئ الخير والشر، إنما تغرس في العقل الباطن للإنسان، من حيث لا يشعر في السنوات الخمس أو الست الأولى من عمره، فإذا عودنا الصبي والبنت الاختلاط فيها، ألا تستمر هذه العادة إلى السبع والثمان؟ ثم تصير أمراً عادياً ينشأ عليه الفتى، وتشب الفتاة، فيكبران وهما عليه؟ وهل تنتقل البنت في يوم معين من شهر معين، من الطفولة إلى الصبا في ساعات معدودات، حتى إذا جاء ذلك اليوم حجبناها عن الشباب؟

أم هي تكبر شعرة شعرة، كعقرب الساعة تراه في الصباح ثابتاً فإذا عدت إليه بعد ساعتين وجدته قد انتقل من مكانه. فهو إذن يمشي وإن لم تر مشيه، فإذا عودنا الأطفال على هذا الاختلاط فمتى نفصل بينهم ؟

والصغير لا يدرك جمال المرأة كما يدركه الكبير، ولا يحس إن نظر إليها بمثل ما يحس به الكبير، ولكنه يختزن هذه الصورة في ذاكراته فيخرجها من مخزنها ولو بعد عشرين سنة. أنا أذكر نساء عرفتهن وأنا ابن ست سنين، قبل أكثر من سبعين سنة. وأستطيع أن أتصور الآن ملامح وجوههن،

وتكوين أجسادهن.

ثم إن من تُشْرِف على تربيته النساء يلازمه أثر هذه التربية حياته كلها، يظهر في عاطفته، وفي سلوكه، في أدبه، إذا كان أديباً. ولا تبعد في ضرب الأمثال، فهاكم الإمام ابن حزم يحدثكم في كتابه العظيم الذي أَلَّفه في الحب «طوق الحمامة» حديثاً مستفيضاً في الموضوع:

خلق الله الرجال والنساء بعضهم من بعض، ولكن ضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب. فمن طلب الرحمة والمودة واللذة والسكون والاطمئنان دخل من الباب، والباب هو الزواج. ومن تسوَّر الجدار أو نقب السقف، أو أراد سرقة متعة ليست له بحق، ركبه في الدنيا القلق والمرض وازدراء الناس، وتأديب الضمير، وكان له في الآخرة عذاب السعير«انتهى كلام الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ[1].

قلتُ: وفي لقاء أجرته المجلة «المصرية»[2] مع السوري

---

(١) السابق، (٥/ ٢٦٨ ـ ٢٧١).

(٢) كانت تملكها هدى شعراوي رائدة التغريب بمصر.

عبدالرحمن شهبندر - أحد رجال السياسة والتغريب في سوريا[١]- سألته عن حال الحجاب في بلاده؟ فأجاب - بأسى!- إن المرأة السورية «تحتجب في المنزل، فلا يراها الأجانب، وتتبرقع بنقاب كثيف إذا خرجت»[٢].

وفي النقولات السابقة فوائد:

١- أن حال المرأة الشامية كان على لزوم ستر الوجه عن الأجانب قبل الاستعمار الفرنسي، وهو دليل على ماحكاه العلماء رحمهم الله من إجماع المسلمين (العملي) على هذا الأمر ـ كما سبق في المقدمة -.

٢- أن مرضى القلوب من دعاة السفور عندما يريدون إقناع الناس بفسادهم يلجأون إلى كذبة متكررة؛ وهي زعمهم أن ستر الوجه عادة طارئة على بلادهم! فإن كانوا في

(١) انظر جهوده في تغريب المرأة السورية المسلمة: كتاب «حقوق المرأة في الكتابة العربية» لبوعلي ياسين، (ص ١٠٧ ـ ١١٠)، مع التنبه إلى أن المؤلف عَلماني.

(٢) المجلة المصرية، أبريل، ١٩٣٧م، نقلاً عن: «هدى شعراوي ـ الزمن ـ الريادة» لجورجيت عطية، ص ٣٥١.

الشام قالوا هي عادة قادمة من بعض «الأعاجم»! كما سبق. وإن كانوا في بلاد عربية غيرها قالوا هي عادة «سعودية»!، وإن كانوا في السعودية قالوا: هي عادة «نجدية»! أو «وهابية»! وهكذا..

المهم أنها عادة وليست شرعًا!! وتتغير هوية هذه العادة بحسب المكان المراد تغريب نسائه!

٣- أن طلائع دعاة السفور هم من الرجال - كما سبق - وليس من النساء! بل تأتي النساء المغرر بهن تبعًا لمدعي نصرة قضايا المرأة. وهذا مما يؤكد أن القضية لاتستثير المرأة بالمقدار الذي تستثير به «بعض الرجال»، ممن لهم إربة ومقاصد من هذه الدعوة؛ لذا تجد حماسهم لها أكثر من حماس النساء أنفسهن!

٤- أن لا ييأس الدعاة والداعيات من حال النسوة اللواتي قد انجرفن مع هذه البدعة، بل يصبروا ويواصلوا دعوتهن إلى العودة للفضيلة؛ كما فعل الشيخ هاشم الخطيب - كما سبق -. وسيرون نتائج ذلك بإذن الله؛ لأن النساء من طبعهن التأثر والإنابة إذا ما عوملن برفق، وموعظة حسنة.

وقد رأينا في هذه السنين - ولله الحمد - عودة كبيرة إلى

الحجاب الشرعي في بلدان شتى، بعد أن ذاق الجميع ألم البعد عن الله وعن شرعه.

إضافات:

١-ذكر نجم الدين الغزي في كتابه «الكواكب السائرة» حادثة إنكار أهل دمشق على من سمح لزوجته بالخروج كاشفة وجهها بدعوى أنها من «القواعد»[١]!

٢-ذكر الأستاذ أنور الجندي - رحمه الله - في كتابه «الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب..»[٢] نقلا مهمًا عن الكاتبة الأمريكية «روث فرانستس» نُشر في جريدة الأهرام، بتاريخ (٢٧-٢-١٩٣٧م) بينت فيه أنه رغم الجهود المبذولة لتغريب المرأة السورية زمن الاستعمار الفرنسي؛ إلا أن النتائج دون المأمول!

تقول: «الحركة النسوية في سوريا أضعف منها في العراق، مع أن عدد المتعلمات السوريات أكثر بكثير من المتعلمات العراقيات. والمرأة السورية تطورت في العشر

---

(١) انظر: «المختار المصون»، للأستاذ محمد موسى شريف، (٢/ ٨١٢).
(٢) (ص٦٢٥).

سنوات الأخيرة، ولكن تطورها كان مقصورًا على تنويع شكل النقاب لا القضاء عليه»!

٣-ذكر الأستاذ محب الدين الخطيب - رحمه الله - في مجلته «الفتح»[١] خبر محاولة تسيير أول مظاهرة نسائية في سوريا عام ١٩٢٧م زمن الاستعمار الفرنسي! وقد نشر الأستاذ ظافر القاسمي صورًا لهذه المظاهرة في كتابه «مكتب عنبر»[٢]. والمظاهرات النسائية وسيلة استعملها المستعمر الغربي في عدة دول إسلامية بتواطؤ من أذنابه لتحقيق أهداف التغريب الذي يتم من خلال «عقلية القطيع» دون أي اعتراض! كما بينت في رسالتي «المشابهة بين قاسم أمين ودعاة تحرير المرأة»[٣].

والمؤلم أنه لا زال يمارس هذه الوسيلة ويُخطط لها من خلال سفاراته! وسط رضى وتعاون من رجال ونساء الطابور الخامس، الذين لا مانع عندهم من تسليم البلاد وثرواتها للمحتل، في سبيل تحقيق شهواتهم الدنيئة.

---

(١) (السنة الأولى، ع ٦٤).

(٢) (١١٣ -١١٧).

(٣) نشر: دار القاسم بالرياض.



(٤)

بدايات السفور في لبنان



(٤)

بدايات السفور في لبنان

هذه الحلقة من سلسلة «بدايات السفور» ستفاجئ كثيرين؛ لأنها تتحدث عن نساء لبنان!

ونساءُ لبنان قد ارتبطن في أذهان كثير منا باللهو والطرب والغناء والرقص والبعد عن الأخلاق فضلا عن الدين.. لأن هذا ما استطاع الإعلام العربي ترسيخه في عقولنا عن أولئك النسوة.

وأعلم أن في هذا ظلمًا وإجحافًا وبُعدًا عن الحقيقة التي يعلمها من زار تلك البلاد، وتجول في مدنها وقراها

وضيعاتها.. ورأى محافظة أهلها - رجالا ونساء - على دينهم وأخلاقهم الطيبة؛ ولكن القلة الشاذة في بيروت خاصة - ومعظمهم من النصارى - قد شوهت صورتهم بين الناس.

ولهذا ينبغي على العقلاء من أهل تلك البلاد بذل الجهد لمحو الصورة الإعلامية المشوهة، واستبدالها بصورة حقيقية حسنة؛ ويكون ذلك بتأليف المؤلفات، ونشر المقالات، وتنفيذ البرامج عن الوجه الآخر للبنان المسلمة من خلال القنوات الإسلامية.. الخ

نعم: إن ضغوط الدول الغربية النصرانية على هذا البلد المسلم كبيرة وضخمة، منذ سلخه من الدولة العثمانية، حيث تصدير إخوانهم النصارى فيه، وتمليكهم البلاد باشتراط أن يكون الحاكم نصرانيًا مارونيًا، ومحاربة مظاهر الإسلام فيه، والسعي في تغريب المسلمين.. الخ جهودهم. ومع هذا كله لابد من مواجهة هذا الكيد بنشر الدعوة الصحيحة، وتوعية المسلمين هناك بدينهم وأخلاقهم، والتأليف بينهم؛ حتى يعود لبنان كما كان بلدًا إسلاميًا محافظًا.

أما عن حال المرأة في لبنان إلى وقت قريب قبل أن

يغزوها التغريب في عهد الاستعمار الغربي، فقد تعجب إذا أخبرتك بأن المسلمة هناك كانت تستر وجهها بالنقاب! وسيزداد عجبك إذا علمت أن المرأة اللبنانية النصرانية كانت مثلها تستر وجهها بالنقاب!

يقول الدكتور النصراني فيليب حِتي في كتابه «تاريخ لبنان»[١] متحدثًا عن أحوال بيروت:

«أثناء السنوات العشر التي احتل فيها المصريون سورية تغلغل النفوذ الغربي إلى داخل البلاد، وأصبحت بيروت الميناء الرئيس، وهو وضع احتفظت به إلى يومنا هذا.. ـ إلى أن يقول في وصفها ـ لم يكن مألوفًا أن يُرى الرجل متأبطًا ساعد امرأة خارج البيت، وقلّ أن يرى المرء في شوارع بيروت رجالا أوربيين يرتدون ملابسهم الغربية. وإذا تجرأت امرأة غربية – زوجة قنصل أو تاجر ـ أن تنتقل خلسة من بيت إلى بيت فإن ذلك كان أمرًا يسترعي انتباه الناس».

إلى أن يقول:

«لم تكن هنالك مدينة لبنانية أخرى تستطيع أن تنافس

(١) (ص ٥١٦- ٥١٨).

بيروت. فطرابلس كانت بلدة صغيرة سكانها سبعة آلاف نسمة، وكانت صيدا فقدت عظمتها ورونقها، أما صور فقد كانت تغط في سبات العصور المتوسطة. وفي جميع هذه المدن **كانت المرأة النصرانية تغطي وجهها** بحجاب كما تفعل المرأة المسلمة». انتهى كلامه.

أما عن المرأة المسلمة هناك؛ فيقول الشيخ محمد رشيد رضا (اللبناني الأصل) متحدثًا عن زيارته للبنان وأحوالها في زمنه القريب:

«كانت المسلمات في بيروت أشد محافظة على التقاليد القومية من أمثالهن في سائر المدن السورية، فلم تؤثر فيهن عوامل التفرنج الذي غلب على نساء النصارى لا النافع الصالح منها ولا الضار المفسد ولا عوامل التترك الذي سرى إلى مسلمات دمشق، فكن أشد مسلمات سورية جمودًا وكان رجالهن راضين بذلك، ثم رغبوا في تعليم البنات فأنشأوا لهن مدارس ابتدائية، وأنشأت الحكومة العثمانية مدرسة للبنات في بيروت كان جميع تلميذاتها من المسلمات؛ لأن النصارى لا يرغبون إلا في مدارس الإفرنج.

ثم وجد في بعض شبان المسلمين الذين تعلموا في

المدارس الأوربية والأمريكية وأثر فيهم التفرنج ميل إلى فرنجة النساء، كان الرأي الإسلامي العام يقاومهم فيه وما زال صديقنا الأستاذ الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت زعيم هؤلاء المقاومين على عنايته بتعليم البنات وإشرافه عليه في عدة مدارس».

ثم تحدث عن تجربة «عزمي بك» والي بيروت، و«أحمد مختار بك بيهم» في إنشاء الجمعيات النسائية الإسلامية ـ إلى أن قال -:

«أنشأ الزعيمان ناديا للنساء في سنة ١٣٣٥ (١٩٧١م) وألفا له جمعية من كرائم المتعلمات منهن باسم» جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات «ثم أسس هؤلاء الكرائم مدرسة لتعليم البنات، وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية يحضرها النساء والمستحسنون لهذا العمل من الأدباء والأطباء ويلقون فيها الخطب والدروس التي اصطلح كتاب العصر على تسميتها بالمحاضرات، ويسمعون من أعضاء النادي الكرائم ما يلقينه فيه ويتحدثون معهن في المسائل الأدبية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية، وإنما يكن مع الرجال سادلات على وجوههن النقاب الإسلامبولي

الأسود، لا سافرات»، ثم ذكر موجز محاضرته التي ألقاها في الجمعية السابقة[١].

متى بدأ تغريب المرأة اللبنانية ؟!

يقول الأستاذ أنور الجندي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية»[٢]:

«وفي لبنان ارتفعت صيحة الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة باسم الآنسة» نظيرة زين الدين «عام ١٩٢٩ في كتاب ضخم بلغ ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير اسمه» السفور والحجاب «اعتمد على الدعوة العاطفية واستغلال الآيات القرآنية والأحاديث فيما ذهب إليه من حرية السفور».

«وقد هاجم الشيخ مصطفى الغلاييني هدف كتاب نظيرة زين الدين وقال: إن هذا الكتاب قد اجتمع على تأليفه عدد كبير من اللادينيين والمسيحيين والمبشرين، وإن الآنسة

---

(١) انظر: «رحلات محمد رشيد رضا»، للدكتور يوسف ايش، ص ٢٤٤-٢٤٧.

(٢) (ص٦٢١- ٦٢٢):

وأباها - الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في الجمهورية اللبنانية - كانا إما مخدوعين، أو شريكين لهؤلاء الدساسين، وانه كشف النقاب عن غايات مؤلفي الكتاب وغيرهم ممن يسعون لإفساد المسلمين والقضاء على عقائدهم وأخلاقهم بالقضاء على المرأة المسلمة.

وقال: إن هذه هي الوسيلة التي وصل إليها أخيرًا المبشرون بعد أن عجزوا عن الطعن في الإسلام؛ وهي استخدام بعض أهله، وقال: إنه في عام ١٩٢٨ كثر اللغط والحديث حول مسألة المرأة في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان والعراق في آن واحد، ثم ظهر كتاب «السفور والحجاب» المكتوب بأقلام أذناب هؤلاء المبشرين الذين نعرف أسماءهم كلهم ونعرف أكثر أشخاصهم، وقال: إن مؤلفوا الكتاب قصدوا إلى الطعن في الإسلام في صور من الأساليب خلابة مموهة بالباطل من القول والزخرف من الكلام..». انتهى.

قلتُ: كتاب الشيخ الغلاييني الذي هاجم فيه كتاب نظيرة عنوانه «نظرات في كتاب السفور والحجاب المنسوب إلى

الآنسة نظيرة زين الدين»، ألفه في نفس العام الذي صدر فيه كتاب نظيرة، مشككا في أن يكون الكتاب من تأليفها؛ لأنه يعلم حقيقته!

قال في مقدمته[١]: «أهدت إليّ الآنسة نظيرة زين الدين كتابها» السفور والحجاب «وأصحبته بكتاب ترغب إليّ فيه أن أنظر في كتابها، وأبدي رأيي فيما تضمنه من الأفكار والآراء. وما كنتُ جاهلا أمر هذا الكتاب، ولا من كان يكتب فصوله، ويُصحح أمثلته في المطبعة. فقد كنتُ أعلم أنه اجتمع على تأليفه المسلم السني، والمسلم الشيعي، والنصراني، واللاديني».

ثم أخذ يرد عليها فصلا فصلا..

قائلا في فصل «النقاب»[٢]: «قد اعتاد نساؤنا النقاب الذي يدفع عنهن نظرات السوء ومقالة الفاسقين، فأي شأنٍ لكِ فيهن وهن لا يرضين ما تدعيهن إليه؟!».

---

(١) (ص ٥)

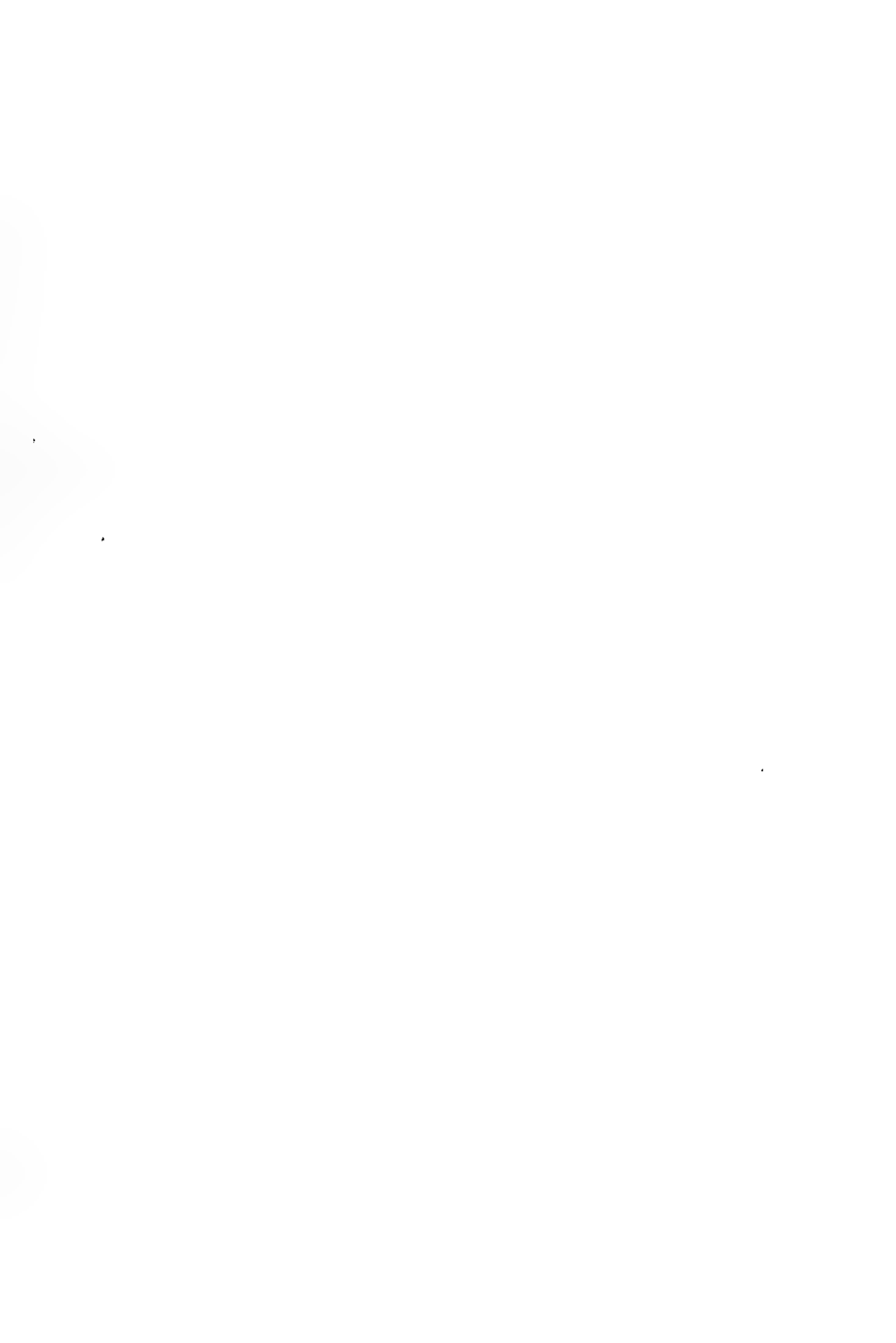
(٢) (ص ٥٣).

قلتُ: وقد أعادت إحدى دور النشر العلمانية في لبنان طباعة كتاب «السفور والحجاب» لنظيرة، عام ١٩٩٨، بمراجعة وتقديم من الدكتورة المتحررة بثينة شعبان - هداها الله -. فحريٌ بدعاة الفضيلة إعادة طباعة كتاب الشيخ الغلاييني، الذي لم يُطبع - حسب علمي - منذ طبعته الأولى.

ختامًا: لمعرفة تطور حركة تغريب المرأة في لبنان؛ يُنظر كتاب «أضواء على الحركة النسائية المعاصرة» لروز غريب[1].

* * *

(١) (ص ٣٤٦ ـ ٣٥٣). مع التنبه إلى أن مؤلفته من دعاة التغريب.



(٥)

بدايات السفور في العراق



(٥)
بدايات السفور في العراق

لقد كانت المرأة العراقية كغيرها من نساء العالم الإسلامي تلتزم الحجاب الشرعي الذي أمرها الله به ورسوله ﷺ، فتغطي وجهها عن الرجال الأجانب، واستمرت على هذا الحال الطيب إلى أن سقطت البلاد العراقية بيد المحتل الإنجليزي (عام ١٩١٧م في قصة يطول ذكرها)، حيث أخذ أعداء الإسلام كعادتهم أينما حلوا يبعثون قضية السفور ويُشجعون دعاتها من المتمسلمين، وكذلك أتباع دينهم من أهل البلد المحتل؛ لتيقنهم أنها الخطوة الأولى لإفساد أبناء

المسلمين، وإشغالهم عن مقاومتهم.

يقول الأستاذ عباس بغدادي في كتابه «بغداد في العشرينات»[١] واصفًا حال المرأة العراقية ذاك الحين:

«أما العبي النسائية، فكانت من النوع الحريري الأسود، وأحسنها ماركة صائم الدهر، وماركة الشبثون المستوردات من سوريا. أما الفتيات الصغيرات والعرائس فلباسهن عباءات (أم جتف)، أي أن كتف العباءة مدروزة بالكلبدون أو البَكر، أو أن العباءة كلها منسوجة مثل إيزارات اليهوديات والمسيحيات. وينتهي لبس هذه العباءات عند انتهاء حفلة زواج البنت؛ ذلك أن ولادة الولد الأول يجعل العروس أماً ولا يليق بالأم أن تلبس مثل هذه العباءات، بل تحتفظ بها لبناتها حين يصبحن فتيات، والمرأة المحتشمة تلبس عباءتين: داخلية تُلبس على الكتف، وخارجية على الرأس مع (البوشية) التي تغطي الوجه ولا تمنع الرؤية، وهي سوداء عدا بوشيات اليهوديات والمسيحيات، فهي مصنوعة من الحرير والكلبدون، ويمكن رفعها إلى الأعلى وتسمى «بيجة».

---

(١) (ص ١٤٣).

كيف بدأت دعوة السفور في العراق؟

يقول الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله-: وفي العراق، تولى كِبر هذه القضية: الزهاوي والرصافي ـ نعوذ بالله من حالهما-»[١].

قلت: هما شاعران زنديقان، ملحدان[٢].

أما أولهما فقد جاهر بإلحاده في ديوان شعر له لم يَسمح بنشره في حياته، سماه «النزغات»! وهو اسم على مسمى! فكله شكوك وحيرة، وإنكار للغيبيات، بل إنكار لوجود الله!

وقد قال الزهاوي في رسائله عن هذا الديوان: «وقصائد هذا الديوان لم تُنشر بعدُ في المجلات والجرائد، وسوف تُنشر بعد موتي؛ لأنها تُصادم آراء المتعصبين»! ولو صدق الملحد لقال: تصادم دين الله عز وجل. ولكنه كغيره ممن يريد أن يستر إلحاده وكفره بمثل هذه الأعذار.

ثم قام الأستاذ هلال ناجي بنشر هذه القصائد في كتابه

---

(١) حراسة الفضيلة، ص ١٤٤. وانظر للزيادة عن دورهما في تغريب المرأة العراقية المسلمة: «حقوق المرأة في الكتابة العربية» لعلي بوياسين، (ص ٧٤-٧٩).

(٢) انظر ترجمتهما في «المعاصرون» لمحمد كرد علي.

«الزهاوي وديوانه المفقود»[١].

والعجب في أحوال هذا الملحد أنه كان يدور مع مصالحه الدنيوية، غير آبه بدين أو خُلق. فقد ألف كتابًا يرد فيه على دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -، تقربًا للدولة العثمانية، كما اعترف بذلك فيما بعد، سماه «الفجر الصادق»، رد عليه الشيخ ابن سحمان - رحمه الله - بكتاب «الضياء الشارق»[٢].

ثم لما احتل الإنجليز بلاده، وانحسر نفوذ العثمانيين، قلب ظهر المجنّ لهم، وأخذ يذمهم ويمدح الإنجليز الكفار بقصائد مخُزية!! منها قوله:

تبصر أيها العربي واتركْ ولاء الترك من قوم لئام

---

(١) (ص ١٢٢ وما بعدها).

(٢) يقول الشيخ محمد بهجة الأثري -رحمه الله- عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ السلفية الإصلاحية: «قامت حرب الدعاية على تأليف الكتب والرسائل في تشويه صورة الإصلاح الديني الذي تتبناه، وحشد لها أبوالهدى الصيادي أعوانه، وصانَعَه حتى مثل جميل صدقي الزهاوي، فكتب رسالته: الفجر الصادق. فلما زال العهد العثماني كتب في مقدمة رباعياته أنه ألّف هذه الرسالة سياسة لا تديناً». (محمود شكري الألوسي ـ سيرته ودراساته اللغوية، ص ٢٠- ٢١).

ووالِ الإنجليز رجال عدلٍ وصدق في الفعال وفي الكلام
أحبُ الإنجليز وأصطفيهم لمرضيّ الإخاء من الأنام!
جلوا في الملك ظلمة كل ظلم بعدل ضاء كالبدر التمام

هذا الزهاوي كان أول من دعا لسفور المرأة العراقية في شعره؛ ومن ذلك قوله:

أخر المسلمين عن أمم الأرض حجاب تشقى به المسلمات

وقوله :

مزقي ياابنة العراق الحجابا واسفري فالحياة تبغي انقلابا

وكتب مقالة طويلة بعنوان «المرأة والدفاع عنها» عقد فيها فصلاً بعنوان «مضار الحجاب»! راح يعدد فيه ما يراه عقله القاصر من سخافات لعله يُقنع العراقيين بباطله؛ كقوله مثلاً «إن الحجاب يسيء ظن الغربيين بنا؛ فإنهم يقولون لو كان المسلمون واثقين بعفة نسائهم لما ضغطوا عليهن هذا الضغط اللئيم؛ فأخفوهن عن عيون تطمع في النظر إلى وجوههن النضرة»[1]!!

---

(١) انظر: «الزهاوي، دراسات ونصوص»، لعبدالحميد الرشودي، (ص ١١٢-١١٧).

ثم جاء بعده قرينه وصاحبه معروف الرصافي الذي كان في بداية أمره متدينًا من طلاب العلامة محمود شكري الألوسي - رحمه الله -!، ثم نكص على عقبيه وانتكس إلى الضلال والإلحاد ـ والعياذ بالله -. ويشهد لهذا قصائده الفلسفية في ديوانه؛ ومنها قصيدته السيئة «حقيقتي السلبية» التي يقول فيها:

ولستُ من الذين يرون خيرًا ... بإبقاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت ... بوحيٍ مُنزل للأنبياء
ولكن هنّ وضعٌ وابتداعٌ ... من العقلاء أرباب الدهاء!

.... الخ ضلاله، كما في ديوانه[1].

ومما يشهد لذلك: كتابه الذي طُبع حديثًا بعنوان «الحقيقة المحمدية»، وكان قد منع أن يُطبع في حياته؛ لما فيه من كفريات وتنقص بسيد ولد آدم ﷺ. وقد حاول البعض

---

(١) (١/ ١١٢-١١٤). وقال عنه الدكتور بدوي طبانة - في رسالته عن الرصافي (ص ٩٣)-: «الذين أفتوا بتكفيره معذورون؛ إذ لم يجدوا تأويلاً لمثل قوله:

ولستُ من الذين يرون خيراً ... بإبقاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت ... بوحي منزلٍ للأنبياء
ولكن هنّ وضعٌ وابتداعٌ ... من العقلاء أرباب الدهاء!

أن يُشكك في نسبة هذا الكتاب له، ولكن هيهات! فقد اعترف هو أنه له[١].

من أشعار الرصافي في الدعوة إلى سفور المرأة؛ قصيدته «المرأة في الشرق» التي قالها زمن الاحتلال الإنجليزي!؛ ومنها قوله:

وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا
عليهن إلا خرجة بغطاء

وكذلك قصيدته الشهيرة «التربية والأمهات» التي مطلعها:

هي الأخلاق تنبت كالنبات
إذا سُقيت بماء المكرمات

ولكنه شانها بقوله:

وما ضر العفيفة كشفُ وجه
بدا بين الأعفاء الأباة

---

(١) كما في رسالته للأستاذ سعيد البدري بتاريخ ٢٥ آذار ١٩٤١م، أوردها الدكتور أحمد مطلوب في كتابه: «الرصافي - آراؤه اللغوية والنقدية» (ص١٨٨).

وللمزيد عن كتابه السيئ «الشخصية المحمدية» يُنظر: «معروف الرصافي - حياته وآثاره ومواقفه-» للأستاذ محمود العبطة.

وقد عارض الأستاذ حسين الآزري قصيدته الأولى بقوله:

أكريمة الزوراء لا يذهب بك الـ
نهج المخالف بيئة الزوراء
أو يخدعنك شاعرٌ بخياله
إن الخيال مطية الشعراء
حصروا علاجك بالسفور وما دروا
أن الذي حصروه عينُ الداء
أسفينة الوطن العزيز تبصري
بالقعر لا يغررك سطح الماء
وحديقة الثمر الجني ترصدي
عبث اللصوص بليلة ليلاء

لكن دعوة الزهاوي والرصافي باءت بالفشل، وقابلها المسلمون بالإنكار؛ إلى أن قام الإنجليز بدعم القضية.

وقد ذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه «الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية»[1] أن حركة

(١) (ص ٦٢٣).

السفور في العراق - بعد هذا - تأخرت «حتى عام ١٩٢١ عندما حمل الإنجليز لواءها على يد الإنجليزية «المس كلي» حيث أسست أول مدرسة للبنات ١٩/ ١/ ١٩٢٠ احتفل بها العميد البريطاني»!

وقد عقد الأستاذ خيري العمري في كتابه «حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث «فصلا بعنوان» معركة السفور في العراق» تطرق فيه إلى تطور القضية بعد ذلك في الصحف، ومادار حولها، ثم ختم بقوله[1]:

«وقد يرد إلى الذهن سؤال وهو: من هي أول امرأة عراقية رفعت النقاب عن وجهها وخرجت سافرة ؟! والحقيقة أن الجواب عن ذلك ليس من البساطة بحيث يكفي أن نقول إن فلانة هي من أسفرت في عام كذا دون أن ندعم هذه الدعوى بما يقيم البينة عليها. لذلك فإني ألتمس من القارئ عذراً إذا قلت إنني لا أريد أن أتورط كما تورط غيري في حكم قاطع بهذه المسألة.

نعم ربما يمكن أن نقول إن بغداد لم تخلُ قبل عام ١٩٣٢

---

(١) (ص ١٤٠ ـ ١٤١).

من عراقيات رفعن النقاب عن وجوههن؛ ولعل عقيلة (حكمت سليمان) من بينهن، ولكننا لا نملك أن نقول إنها أول من أسفرت من نساء العراق؛ لاسيما وأن أكثر نساء الريف سافرات.

الأمر الثاني الذي أريد أن أذكره هو وجود قوتين كانتا تلعبان في تلك الأيام دورًا مهما في توجيه الأمور وهما: (البلاط) و(دار الاعتماد البريطاني).

وبالنسبة إلى البلاط لم يكن موقف الملك فيصل من قضية سفور المرأة واضحًا، فهو تارة يبدي ما يفهم أو يحمل على محمل التأييد والإسناد، وطوراً آخر يتراجع عندما يجد الرأي العام ناقماً ساخطاً. والواقع أن الدعوة إلى سفور المرأة ذلك الوقت لم تجد تقبلاً في الأوساط الشعبية.

ولعل سر هذا التقدم والتراجع يرجع إلى عوامل شتى منها تأثره ببعض المقربين إليه ومدى إيمانهم بحرية المرأة، فالملك (علي) كان يدفع بالملك فيصل إلى الوقوف بوجه دعاة سفور المرأة، و(رستم حيدر) و(ساطع الحصري) كانا يشجعانه».

أما الدكتور عدنان الرشيد فيقول في مقاله «٦٥ عاماً على

سفور أول طالبة في بغداد» المنشور في مجلة الهلال، ربيع ثاني ١٤٢٤هـ:

«تمر هذه الأيام ذكرى مرور ٦٥ عاماً على سفور أول طالبة في كلية الحقوق في بغداد، وكان ذلك في عام ١٩٣٤م عندما خلعت الطالبة «صبيحة الشيخ داود» العباءة، ودخلت الكلية، فانبهر الطلاب من هذا المشهد الذي لم يألفوه».

ويقول - أيضًا -: «لعلنا في هذا المقام نذكر دور الفتيات المسيحيات واليهوديات في إحياء حركة السفور في بغداد».

وقد قال الأستاذ خيري العمري في كتابه السابق كلامًا له دلالاته عند العقلاء[1]:

«إن مفهوم السفور خلال تلك الفترة يختلف عن المفهوم السائد للسفور في هذه الأيام؛ فقد تطور ذلك المفهوم تطوراً كبيراً. كان مفهوماً ضيقاً يُقصد به مجرد **رفع النقاب عن الوجه**. في حين أنه تجاوز اليوم هذه الدائرة الضيقة، فالمرأة في تلك الأيام كانت تُعتبر سافرة إذا رفعت

---

(١) (١٣٨-١٣٩).

النقاب عن وجهها. على أنها اليوم لا يكفي أن ترفع النقاب؛ فلابد لها أن ترفع العباءة أيضاً لتكون في عداد السافرات»!

فكشف الوجه هو الخطوة الأولى.. فافهم!

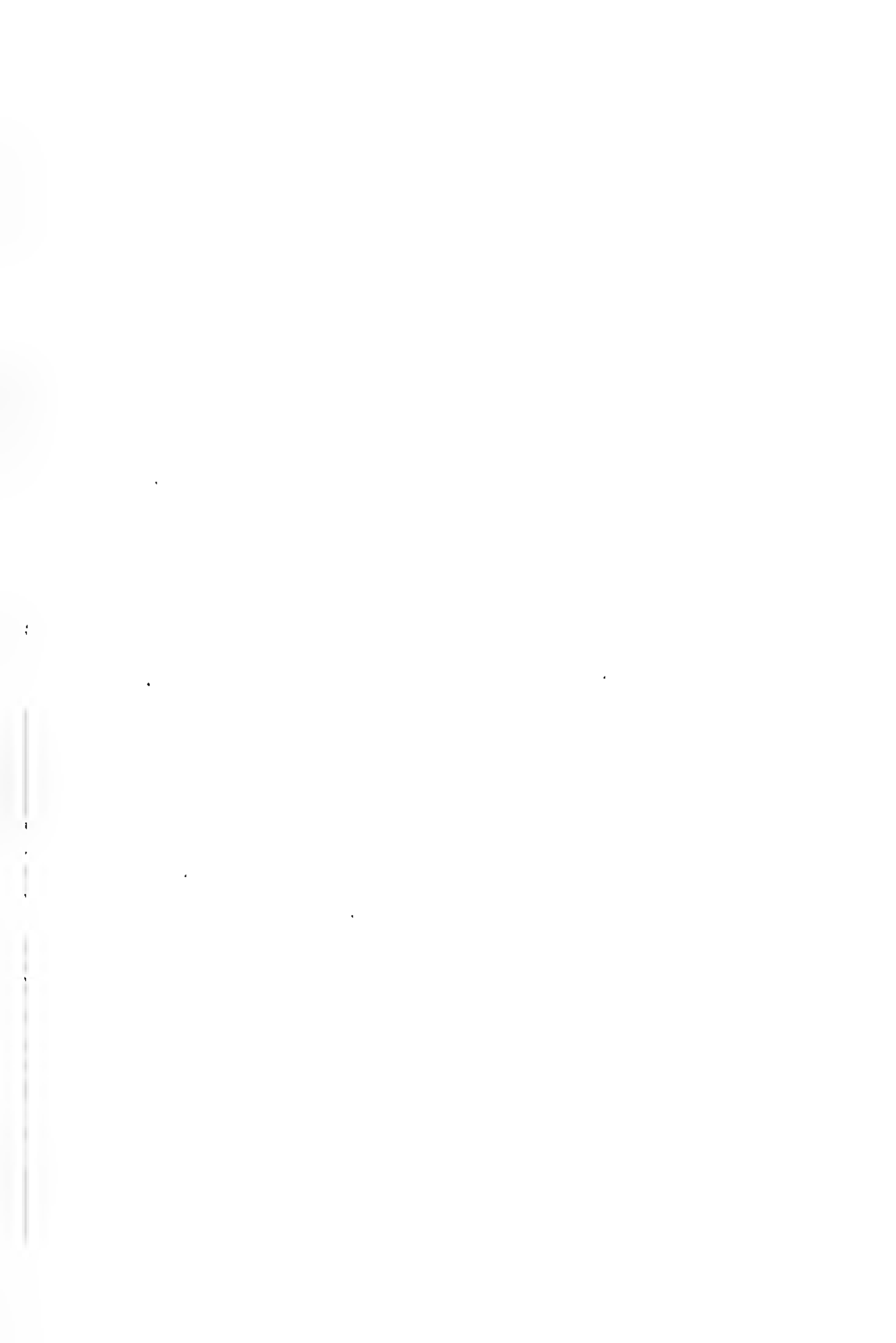
هذه قصة السفور في بلاد الرافدين - باختصار -؛ قادها المحتل الإنجليزي مع زمرة من المنحلين، وتابعهم فيها بعض الأغرار من الرجال والنساء؛ ظانين - بجهلهم - أن هذا هو طريق التقدم والتحضر؛ كما أوهمهم بذلك الإنجليز الخبثاء الذين زينوا لهم هذا الفساد؛ إلى أن اكتشف الكثيرين والكثيرات من أبناء وبنات فيما بعد حقيقة هذه الدعوة الزائفة؛ فأخذوا بالعودة إلى الالتزام بأحكام دينهم، والاعتزاز بأخلاقهم؛ بعدما تيقنوا أن ذلك لا يمنع من علم أو تقدم كما يدعي الأعداء.

وتشهد السنون الأخيرة عودة وأوبة إلى دين الله في بلاد العراق العزيز، مع حرص على التمسك بعقيدة السلف الصالح، كما نشاهد ونسمع - ولله الحمد والمنة -.

* * *

(٦)

بدايات السفور في المغرب



(٦)

بدايات السفور في المغرب

في هذه الحلقة أواصل الحديث عن بلد إسلامي آخر، وقع فيه ما وقع لغيره؛ من انتشار هذا السفور الطارئ على نسائه بعد الاستعمار؛ وأقدِّم بخطاب رفعه أهل الرباط لملك المغرب - ونقله الشيخ عبدالله كنون في كتابه «معارك» [1]- يشتكون فيه - كما يقولون - من «انحلال الأخلاق وتدهور المجتمع بصورة لم يَسبق لها مثيل»، وذلك بعيد رحيل المستعمر عن بلادهم. ومما جاء فيه؛ قولهم:

---

(١) (ص٢٧٥-٢٨٥).

«إن الاستعمار قد انتزع فكرة الحلال والحرام من نفوس أبنائنا الذين رباهم على يده، والسياسة التعليمية التي وضعها ما تزال متبعة في أكثر خطوطها، فإذا كان هذا الذي عرضناه من نتائج المدرسة الاستعمارية لا يرضي المسؤولين عندنا ـ واعتقادنا أنه لا يرضيهم- فعليهم أن يأخذوا الأمر بجد، وأن يضربوا ببرامج التعليم الاستعمارية عرض الحائط، ويضعوا سياسة تعليمية جديدة قائمة بأنوار الثقافة الحق والحضارة الإسلامية، وإلا فإن الأمر سيفضي بهم وبنا إلى ما لا تحمد عقباه، وما هذا النموذج الذي عرض نفسه علينا وأطلعناهم عليه إلا مثال مما سيصير إليه المواطنون المغاربة من الاستهتار بالقيم الخلقية ولوثة العقل والثورة على كل الأوضاع القائمة وتقويضها من أجل قيام الوضع الذي زينه لهم في صحافته ويدعوهم إليه بمختلف الوسائل».

قلت: لقد كانت المرأة المغربية كغيرها من نساء المسلمين؛ تغطي وجهها عن الأجانب؛ امتثالا لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ. يقول الأستاذ محمد بن أحمد اشماغو في كتابه «المجتمع المغربي كما عرفته خلال

خمسين سنة، من عام ١٣٥٠إلى عام ١٤٠٠ هـ»[(١)] متحدثًا عن طبقات المجتمع المغربي «الغنية والمتوسطة والفقيرة» قائلا[(٢)]:

«وبما أن النساء كن محجبات - في الطبقات الثلاث- لا تبرز للعيان الجميلة منهن والعادية والدميمة، فإن الزوج - غالباً- ما كان يحمد الله على القسمة، ويتصور أن زوجته هي سيدة النساء، حتى ولو كان من الذين سبق أن تعرفوا على جوانب الحياة كلها الخفي والظاهر منها، ذلك لأن الزوجة تمتاز بأنها المأوى الأمين والرفيق في دروب الحياة، والمساعد على تكاليف وأعباء العيش، والصابرة عند الضائقات، فعلى هذا تكون الزوجة كريمة وغالية عند الكرام الغلاة».

قلتُ: من السنة أن يرى الرجل مخطوبته قبل الزواج[(٣)]؛ فكما أننا لا نتساهل؛ فكذلك لا نتشدد بمجاوزة السنة.

---

(١) (ص٢٣).

(٢) (ص٢٣).

(٣) كما في قوله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل». أخرجه أبوداود (٢٠٨٢)، وحسّنه الألباني.

ويُعلق الدكتور مصطفى الحيا على التأثير الفرنسي في مجال اللباس بالمغرب فيقول: «.. ظلت المرأة المغربية لعهود طويلة تُعرف بزيها الأصيل والمحتشم الذي يشمل الجلباب والنقاب، لكن عندما خرج الاستعمار الفرنسي ترك نخبة تكونت بفرنسا فبقيت الحياة التنظيمية والعصرية مطبوعة بالطابع الفرنسي، فأثر ذلك على المظهر الخارجي للمرأة المغربية الذي أصبح مطبوعاً بالطابع الأوروبي؛ فالحجاب هو من خصوصيات المرأة المسلمة، ومنها المغربية، وقد استطاعت النخبة المغتربة بالمغرب أن تؤكد أن من مظاهر تحرر المرأة المغربية هو نزعها للحجاب، بل ذهب بعض مناضلي اليسار المغربي إلى اعتبار أن نزع المرأة المغربية للحجاب هو احتجاج على الاستعمار الفرنسي، وهذا منطق مغلوط؛ لأنه لا يمكن أن تكون مواجهة ومقاومة للغرب بنفس غير النفس الديني الإسلامي، وبدون الاعتماد على مقوماتنا، وخاصة أن عنصر القوة فينا هو الإسلام، ففي الجزائر مثلاً أصيب الاستعمار الفرنسي أثناء احتفاله بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر بالخيبة والحسرة عندما وجد نفسه أمام كم هائل من النساء الجزائريات المحجبات، فتأكد له أن

كل خططه لن تنجح ما دامت المرأة ظلت متمسكة بدينها...»[١].

وعندما ألقى الشيخ محمد بن الحسن الحجوي (ت١٣٧٦) صاحب كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» محاضرته عن تعليم الفتاة في المغرب عام (١٩٢٥م) اعترض عليه كثير من الناس هناك ظانين أنه يدعو إلى السفور وكشف الوجه؛ لما رأوه من ارتباط تعليم الفتاة بسفورها في دول المستعمرين؛ مما دعاه إلى إلقاء محاضرة قيمة أخرى بعنوان (تعليم الفتيات لا سفور المرأة) قال فيها: «إني أعلم أن الذين أنكروا علي الحث على تعليم البنات لهم قصد حسن، وغيرة حملتهم على ذلك». وقال: «ولما كان تعليم الفتيات قد تعارض عند بعض الناس بمسألة سفور المرأة؛ لسبب سأبينه فيما بعد، لذلك نبهت على ذلك في أول كلمة؛ إزالة للبس وإذهابًا لظلام المخالطة». ثم شن حملة قوية على دعاة سفور المرأة في العالم الإسلامي؛ من أمثال:

(١) (مجلة البيان، العدد ٢٠٣).

قاسم أمين، والطاهر الحداد[١].

وقال الشيخ المغربي عبدالله التليدي في كتابه «ذكريات من حياتي»[٢] - متحدثاً عن المجتمع المغربي-: «غير أنه رغم وجود هذه المخازي في المدن، وفي بعض البوادي، فقد كان ظاهر المجتمع سليماً من الفواحش الفاضحة التي ظهرت في عهد الاستقلال، وكان أكثر الناس يغلب عليهم الحياء والمروءة نتيجةً للتربية الإسلامية التي كانوا يتلقونها عن علمائهم وشيوخهم الصَّادقين المصلحين المخلصين.

وكانت النساء **كلهنَّ متحجبات متنقِّبات** لا ترى امرأة عارية أبداً، لكن الوضع بدأ يتغيَّر أواخر الاستعمار شيئاً فشيئاً، بدعاة أبواب النار، وكان مصدر ذلك ومنشؤه الرئيس: المدارس العصرية الاستعمارية والحرة، حيث عُني بتعليم المرأة وتحريرها، وجاء الاستقلال فوجد المناخ صالحاً،

---

(١) انظر: رسالة: «تعليم الفتيات لا سفور المرأة»، للشيخ الحجوي، طبعت عام ١٤٢٥هـ، بتحقيق الدكتور محمد بن عزوز.

(٢) ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

فاستفحل الأمر وظهر التفرنج، واقتفى المسلمون أثر الكفار في كل شيء، وتشبَّعوا بأفكارهم وحضارتهم، وفسدت الأخلاق، وذهب الحياء، وماتت المروءة، ومزَّقت المرأة الحجاب، وخرجت عارية كاشفةً عن محاسنها، وتفنَّنت في وسائل الإغراء، وكل ما يثير الرجل، ويحرِّك مشاعره نحوها، وظهرت الأحزاب السياسية والهيئات المختلفة، وتخرَّج رجال ونساء من المدارس الجديدة بثقافة أجنبية، وظهر دعاة جهنم يدعون إلى مذاهب وأفكار متطرِّفة خارجة عن الإسلام: شيوعية ملحدة لا دينية، اشتراكية علمانية، ديمقراطية كاذبة لا دينية، فأصبح المغرب كباقي الشعوب الإسلامية كما نرى.

وزاد الأمر فساداً في الأخلاق والميوعة شيوع التلفزيون بقنواته الفاضحة المقيتة الخبيثة، فقضى على ما كان قد تبقَّى من الحياء والحشمة والتعفُّف والأخلاق الفاضلة، ففسدت الأسر وتفكّكت العائلات، ودخلها الانحلال والميوعة والتفسُّخ.

وفتحت الدولة والسلطات المجال على مصراعيه للفساد: خمور مرخَّص في بيعها، وتُشرب جهاراً، وحانات

منتشرة في كل مدينة، وفنادق وشقق مفروشة مهيَّأة للشرب والزنى، وكبريهات ومراقص هنا وهناك، وأندية و مجتمعات للعراة والعرايا، وشواطئ مختلطة للسباحة والاستجمام، يندى لها الجبين، والناس فرحون مرحون!!

هذا هو مجتمعنا الحالي المغربي، ومرضنا هو مرض كل الشعوب الإسلامية. بَيْد أنه يوجد بين هؤلاء المفسدين الإباحيين أقوام، أفراداً وجماعات، يدعون إلى الخير، وينهون عن الشر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، لهم مواقف في معارضة الفساد، والأخذ على أيدي المفسدين بألسنتهم وأقلامهم. وفي هؤلاء المصلحين المعارضين للحالة الراهنة أحزاب دينية سياسية، و جماعات وأفراد».

وقال الأستاذ المغربي الحسن الكتاني - مؤكداً ما سبق-: «ومع بسط الحماية الفرنسية على المغرب أخذت الحياة الاجتماعية تتغير تغيراً كبيراً، إن في العقائد والأفكار، أو طريقة المعيشة أو اللباس، بل حتى في الخط.

فقد تأثر أغلب المغاربة بالأوروبيين، حتى بدأوا يتشبهون بهم في أخص خصوصياتهم؛ كحلق اللحى

واللباس وطريقة الكلام، ولأول مرة خرجت المرأة المغربية متبرجة أمام الرجال، تشاركهم في الحفلات والسباحة على شواطئ البحار. وظهرت مظاهر كثيرة من الخروج عن الدين، مع انتشار الخمر والملاهي الليلية.

ويرجع ذلك لتغير نظام الحكم، وإحلال القانون الأوربي محل الشريعة الإسلامية، مع انتشار المدارس المعروفة بالعصرية، ذات التوجه العلماني، وانتشار وسائل الإعلام الحديثة، غير المقيدة بالأحكام الشرعية»[١].

أسأل الله أن يهدي ضال المسلمين، وأن يوفق المسلمات في المغرب للعودة إلى الحجاب الشرعي، وأن يعلمن - وغيرهن - أن الله لا يأمر بشيئ إلا وفيه مصلحة المرء والمجتمع، وأن الحجاب لا يعيق المرأة عن ما ينفعها؛ من علم أو عمل مناسب لطبيعتها. والله الهادي.

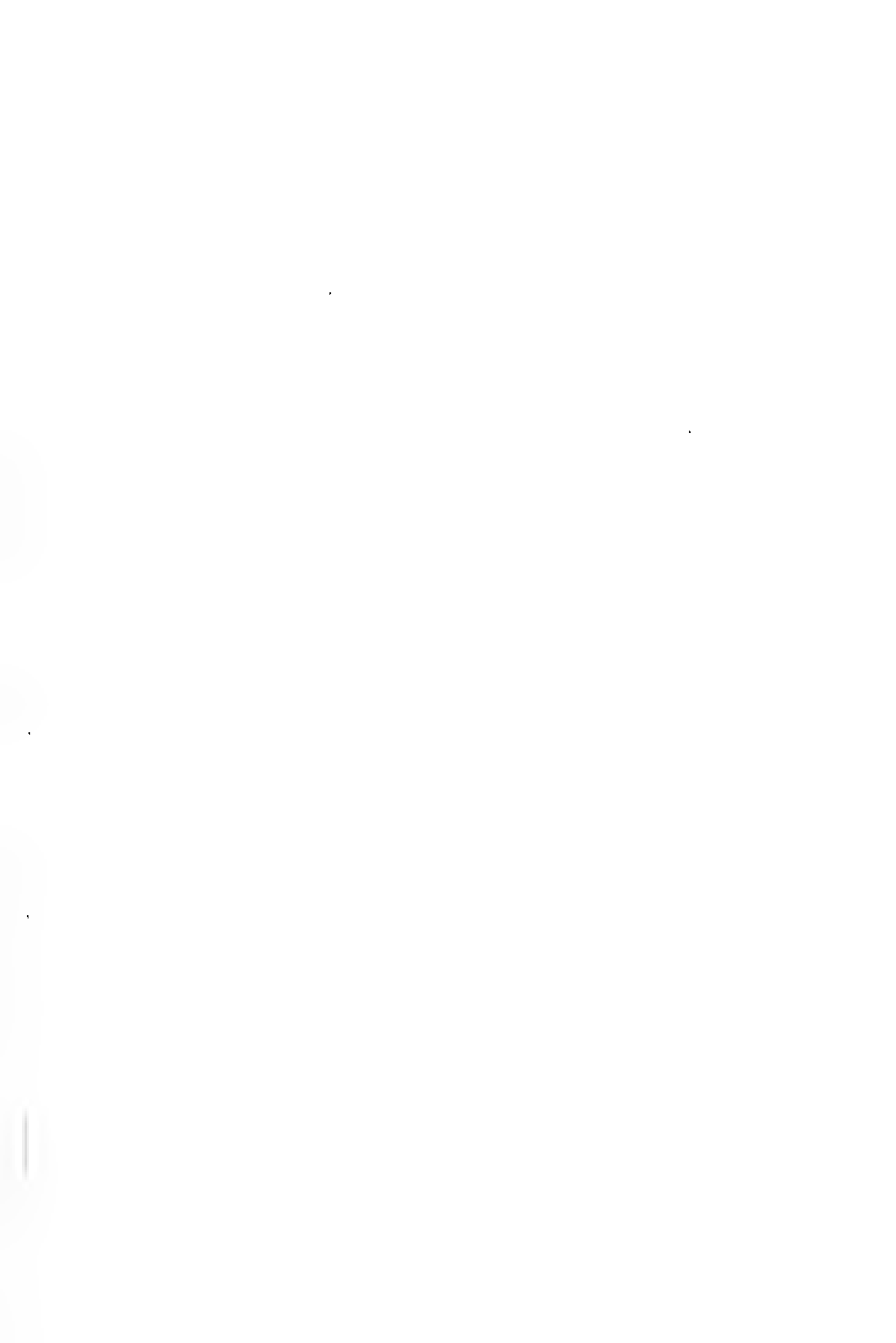
* * *

(١) فقه أحمد الغماري، (ص ٤٢- ٤٣).



(٧)

بدايات السفور في الجزائر



(٧)

بدايات السفور في الجزائر

يقول الأستاذ الجزائري: محمد سليم قلالة في كتابه «التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد»[1] متحدثًا عن بداية السفور في الجزائر:

«حدث هذا في مثل هذا الشهر من سنة ١٩٥٨: يوم الاثنين ٢٧ ماي..

«سيداتي سادتي! أيتها المرأة، اعلمي أن الوقت قد حان لتلعبي دورك في تاريخ الجزائر الجديدة.. أيتها الفرنسية

---

(١) (ص ١٣٣ - ١٣٧)

اعلمي أنك شريكة الرجل في الحياة، وفي المجتمع الإنساني، أنك تقاسمينه الآلام والأفراح، سعادته وتعاسته.

لقد أقامت الديانة الإسلامية العدالة بينك وبين الرجل، هو أخوك في التكاليف والعلاقات الإنسانية، يقول الله: «للنساء نفس الحقوق ونفس الواجبات»[(١)]. اعلمي يا أختي العزيزة أنك لست سلعة تشترى وتباع، إنك سيدة بيتك وسيدة في الشارع وفي تربية الأجيال، إنك سيدة بالرغم من الذين ينازعونك مكانتك، حطمي أغلالك بمطارق من حديد.

إن هذا الحجاب الخيالي الزائد لا علاقة له بالإسلام، إن العفة والأخلاق الحسنة ليست أبداً خلف هذا الحجاب الشفاف والمخادع، إن أفضل حجاب هو الصفات الدينية والخلقية الحسنة، إننا نريد يا أختنا العزيزة أن تثوري بشدة ضد مبادئ عصور مضت في إطار الدين، وتشاركي الرجل في الوجود.

وأنتم أيها الرجال اعلموا أن تجديدكم لا يمكن أن يتم

---

(١) هذه ليست آية من القرآن! وهذا دليل على جهل هذا الإمام المزيَّف وتلاعبه.

إلا إذا ارتكز على المرأة، ساعدوا أنفسكم لإقامة مجتمع مزدهر، إن وراءكم فرنسا تحميكم بديمقراطيتها ومثلها العليا وتساعدكم على بلوغ أهدافكم».

إلى هنا ينتهي قول إمام مسجد سيدي الكتاني آنذاك في مدينة الشيخ ابن باديس أمام نحو ١٠٠ ألف شخص بحضور سوستيل وسالان. (الجنرالان الفرنسيان!)

وبعد قليل تصعد فتاة جزائرية مسلمة إلى الميكروفون لتقول: «لقد سمعنا صوتاً من أكثر الأصوات المأذونة في الإسلام يدعو إلى التجديد الذي يجب أن نحمله في تحررنا الغالي، لا ندع الفرصة تضيع، إنها الفرصة الوحيدة التي تُمنح لنا للسير في طريق التحرير الكامل والمطلق، أرجوكن أن تقمن بعمل رمزي يكون دليلاً على بداية وجودنا الجديد وعلاقتنا الأخوية الكاملة تجاه أخواتنا من جميع الديانات في وطننا المشترك فرنسا، أطلب منكن أن تفعلن مثلي».

وفي حركة رائعة (يقول المعلق) نزعت الآنسة بنت الباشا آغا حائكها الأبيض ثم حجابها، ورمت الكل من الشرفة وسط دوي من التصفيق والصياح:

هورا!! هورا!! برافو!! برافو!!

وتتبعها فتيات أخريات.. تنزعن أحجبتهن وتطلقن الصيحات المدويات وسط دوي آخر من الصياح: هورا! هورا! برافو! برافو!

ويبدأ فصل جديد في سياسة الاستعمار الثقافي لبلادنا...

وفي الساعة السادسة مساء من يوم الثلاثاء ٢٠ ماي ١٩٥٨ حدث نفس الشيء أيضاً في مدينة وهران بمسرح الاخضرار، حيث تجمع أكثر من ٥٠ ألف شخص.. ألقيت الكلمات من طرف السلطات المحلية يتقدمهم الجنرال ماسو، وعُلقت اللافتات ثلاثية اللون وقد كتب عليها: «الجزائر فرنسية»، «شعب واحد، قلب واحد»، «ديغول في السلطة».. وبعد ذلك فسح المجال للأهم.

«وتوالت على المنصة فتيات مسلمات في سن الزهور، بلباس أوروبي؛ ليطلبن من أخواتهن التخلي عن أحجبتهن التي تمنعنهن من تحرير شخصياتهن».

وفي حماس فياض - يقول المعلق الصحفي- تقوم النساء الموجودات بين صفوف الجماهير وأغلبهن ربات بيوت بنزع أحجبتهن ودوسها بالأقدام في الوقت الذي

ارتفعت فيه صيحات عديدة: تحيا الجزائر الفرنسية، وتبعها دوي من التصفيق الحار.

ويستمع الجميع ويرددون (لامارساييز) النشيد الوطني الفرنسي، ثم ينتشرون في شوارع وساحات المدينة يلعبون ويمرحون و.. الخ.

وفي الجزائر العاصمة، وهي مركز كل شيء: بدأ المهرجان الشعبي يوم ١٣ ماي يوم استولى العسكريون على السلطة في الجزائر، وأعلنوا لجنة الخلاص العام، وطالبوا بصعود ديغول للحكم. ابتداء من هذا التاريخ انتظم مهرجان وطني بالعاصمة الجزائرية لمساندة لجنة الخلاص الوطني، وقبل ذلك لوضع اللبنة الأولى للاستعمار الثقافي الجديد.

كان اللقاء يتم بأهم ساحات المدينة: (ساحة الشهداء والأمير عبدالقادر حاليًا)، وكان جنرالات فرنسا في كل يوم يلقون الكلمات والخطب أمام التجمعات العامة، وفي كل يوم كان يزداد العدد ويزداد المرح واللهو ويندمج الجميع في ظل النشوة العارمة، ويتحدون في الرقص والغناء والطرب، في الوقت الذي كانت الجبهة توحد نساء ورجالاً آخرين في ميدان المعركة حيث الدم والدموع.

في ظل هذه النشوة قامت نساء جزائريات بالحركة المشهورة التي سموا على أثرها بنساء ١٣ ماي: لقد قمن بإحراق أحجبتهن أمام الجميع تعبيراً عن رفضهن للمجتمع الجزائري المسلم، واندماجهن في المجتمع الفرنسي الغربي.

وروجت الصحافة الفرنسية الخبر، ونشرت صور النساء وهن يحرقن جلابيبهن، وعلقت إحدى هذه الصحف (درنيار أور): (آخر ساعة) على صورتين نشرتهما على نصف صفحتها الأولى يوم الاثنين ١٩ ماي ١٩٥٨ «أمامكم وثيقتان نادرتان تنفرد (آخر ساعة) بنشرهما»، «لقد نزعت أمس في المهرجان مجموعة من الشابات الجزائريات المسلمات أحجبتهن وأحرقنها، إنه عمل يؤكد رغبة المرأة المسلمة في التفتح على فرنسا، وبعد هذا العمل العظيم، هل يبقى في فرنسا من يرفض سياسة الإدماج؟ ستتجمع النساء الجزائريات اليوم، وستكون هذه التظاهرة الفريدة من نوعها حدثاً بارزاً في هذه الأيام التاريخية التي تعرفها الجزائر، إن وجوه النساء الشابات التي يمكن لقرائنا رؤيتها هي عنوان مستقبل الجزائر».

ويحدث التجمع الذي تكلمت عنه الصحيفة بحضور سوستيل والجنرال سالان، وتواصل الفتيات الجزائريات نفس العمل وسط دوي من الصياح هورا.. هورا.. برافو! برافو! ». انتهى كلام الأستاذ محمد[١].

يتبين لنا من النص السابق أمران:

الأول: أن الاستعمار قد أوجد عملاء له من أبناء المسلمين، يفخرون بالانتماء إلى بلاده، ويجعلون من بلادهم الاسلامية مجرد تابع ذليل له.

الثاني: أن حركة السفور تمت برعاية صليبية نصرانية، وبمتابعة من الببغاوات الذين انخدعوا بشعارات الغرب الزائفة؛ فانسلخوا من دينهم، ثم تبين لهم فيما بعد أنهم خسروا دينهم ودنياهم؛ بسبب بلاهتهم وثقتهم فيمن قال الله عنهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

* * *

---

(١) وينظر للزيادة عن حركة تغريب المرأة المسلمة في الجزائر: كتاب «المرأة الجزائرية» لمجموعة باحثين، بإشراف د. عبدالقادر جغلول.



(٨)

بدايات السفور في تونس



(٨)

بدايات السفور في تونس

كانت تونس كغيرها من بلاد العالم الإسلامي يلتزم نساؤها الحجاب الشرعي، فيسترن وجوههن عن الأجانب، إلى أن سقطت البلاد بيد الاستعمار الأجنبي الذي شجع دعوات السفور التي قادها تلاميذه من المنافقين ومرضى القلوب. فكانت البداية أوائل ١٩٢٤م، عندما عقد الحزب الاشتراكي ندوة في المنبر الحر بالترقي، ويومئذ اعتلت المنصة موظفة مسلمة سافرة، هي منوبية الورتاني وخطبت في الجمهور مطالبة في جرأة بحقوق المرأة المسلمة، ملحة

على ضرورة رفع الحجاب عنها.. وأحدث خطابها رجة في صفوف الحاضرين لا سيما أن تجرؤ امرأة مسلمة على الوقوف أمام الجمهور ومخاطبته سافرة للمطالبة بما لا يخطر على بال مسلم تونسي يومئذ كان بدعة»[١]. ومما يُذكر هنا قصيدة الأستاذ عبدالرزاق كرباكة التي وجهها للمحاضِرة بعنوان (داعية رفع الحجاب):

أعقيلة الإسلام هل يرضيكِ
هتكُ الحجاب ومسُّ شرع نبيك؟
ماذا رأيت أفي التبرج زبرج
يا سوأة القوم الألى ولدوك
ما أنجبوك لكي تكوني سُبة
للغير يشناهم بها شانيك
تالله داعية التهتك لم ترا
عي الدين لم ترعي حمى أهليك
ماذا يضرك ذا الحجاب وحرزه
حتى انبريت تسفهين ذويك

---

(١) أضواء على البيئة التونسية، (ص ٢٤٩-٢٥٠). وانظر: « المرأة العربية في الدين والمجتمع »، حسين العودات، ص ١٤٥.

أنا لا أرى إبقاء جهلك لا ولا
أرضى بقانون به ساسوك
بل إن رأيي أن تنالي تعلما
وأصول تربية وإن صدوك
لنرى مآثرك الزكية قد بدت
في عيش بعلك واهتداء بنيك
فلك من الفكر السليم غريزة
ولك من العزمات ما يكفيك
ولسوف ينبت فيك غرس العلم إن
بذروه خير صيانة وسلوك

إلى أن يقول:

فتربعي في كسر بيتك واقنعي
بالعيش ضمن صيانة تكسوك
ودعي سلوكاً شائناً كيما تكو
ني قوة لحجابك المسموك
يا ما أجلك في مخافيه ويا
ما أحصن الخدر الذي يؤويك

ولـــك إذا شـئت الهــداية إســوة

بينـــات يثــرب أو نسا اليرموك[١]

ثم حلت سنة ١٩٢٩ فدخلت معركة الحجاب في طور جديد اصطبغ بالسياسة: ذلك أن امرأة تونسية مثقفة تدعى حبيبة المنشاري اعتلت سافرة منبر جمعية الترقي بالعاصمة؛ فألقت مسامرة في جمع غفير من الرجال ومن الأوانس والعقائل التونسيات، وقد بسطت فيها حالة المرأة التونسية ونددت بالحجاب، ولثاني مرة في تونس جرؤت امرأة مسلمة على الوقوف أمام الجمهور ومخاطبته سافرة؛ مما أحدث رجة في القاعة، فصفق لها المعجبون وعبس المستنكرون، وكان الجمهور خليطاً من الفرنسيين والتونسيين، وقد اعتلى عديد منهم المنصة، وتكلموا إما للترحيب بالمحاضرة السيدة حبيبة المنشاري وإبداء الإعجاب بآرائها ومهاجمة الآباء الجامدين المتزمتين؛ كما عبر عن ذلك المحامي محمد نعمان والمسيو «لافيت» رئيس تحرير جريدة «البتي ماتان» والمسيو«دوريل» رئيس

(١) السابق، (ص ٢٩٩-٣٠٠).

الجامعة الفرنسية للعملة بتونس والأستاذ في معهد كارنو..».
وفي هذه الأمسية أخذ الكلمة بعد محاضرة المنشاري المحامي الحبيب بورقيبة - رئيس تونس الهالك فيما بعد - وقال:

«إن الوقت لم يحن بعد لرفع الحجاب»[(١)]! لعلمه أن المجتمع المسلم لازال متماسكًا أمام دعاة التغريب.

بعدها بدأ دعاة التغريب بتواطؤ من الغرب المستعمر شن حملة ضد الحجاب وغيره من الأحكام الشرعية، مع ترديد الزخارف التي ينخدع بها السذج؛ كقول أحدهم - الهادي العبيدي - عام ١٩٢٨م: «إن الأمة التونسية اليوم على باب تطور جديد ونهضة تؤذن بمستقبل زاهر، فواجب عليها أن تدخل البيوت من أبوابها وتأخذ بوسائل النهضة الحقيقية حتى تبلغ المراد من أقرب السبل فتقتصد الوقت ولا تتكلف من التضحيات والمشاق إلا قليلا..».. الخ زخارفه[(٢)] التي يشهد واقع تونس بعد ٧٨سنة بكذبها!!

---

(١) السابق، (ص ٢٥٩-٢٦١).

(٢) السابق، (ص ٢٥٤).

ثم أصدر مُغرّب المرأة في تونس «الطاهر الحداد» – عام ١٩٣٠م كتابه الشهير «امرأتنا في الشريعة والمجتمع»[١]، فأصبح – كما يقول بوعلي ياسين[٢]: «بمنزلة قاسم أمين في مصر»، وقد قيل إن الكتاب ليس له، إنما ألفه أحد النصارى – الأب سلام – وجعله باسمه؛ خداعًا للمجتمع المسلم. وقد دعا الحداد في كتابه إلى أمور كثيرة منكرة، على رأسها مطالبته بنزع الحجاب وكشف الوجه – كخطوة أولى –. يقول في كتابه مشوهًا النقاب الذي كانت تلبسه التونسيات: «ما أشبه ما تضع المرأة من النقاب على وجهها منعًا للفجور بما يوضع من الكمامة على فم الكلاب كي لا تعض المارين» [٣]!

وقد تصدى علماء تونس والغيورون فيها للحداد وردوا عليه، ومن تلك الردود: كتاب «سيف الحق على من لا يرى الحق» للشيخ عمر البري – رحمه الله –، وكتاب «الحِداد

---

(١) «قضية المرأة في فكر النهضة»، (الفصل الرابع: الطاهر الحداد ممثل اللحظة التونسية)، فرج بن رمضان، (ص ٤٠ – ٤٧).

(٢) في «حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة»، (ص ١٠٢).

(٣) الأعمال الكاملة، للحداد (٣/ ٢٠٨).

على امرأة الحدّاد» للشيخ محمد الصالح بن مراد - رحمه الله -[١]، وغيرهم من العلماء والشعراء.

ومن أقوالهم فيـه :

قال الشيخ ابن مراد: «أجهدتَ قريحتك وأعملتَ فكرك في سبب وضعنا لنسائنا النقاب على وجوههن؛ فأنتج لك ذاك ما قلتَه بصفحة ١١٥ من أنا نضع النقاب على وجه المرأة منعاً لها من الفجور، وأن ذلك شبيه بما يوضع من الكمامة على فم الكلاب كي لا تعض المارين!! ذكاء مفرط وفهم عجيب! أتتصور أنا نعتقد في نسائنا الفجور، وأنهن يعضضن المارين؟ إن اعتقادك لذلك غاية البلاهة، وإن جوابك عن ذلك الاستنتاج العجيب هو ما سمعنا منك قوله في حق الأوربية، فوضع النقاب ليمنع عين الفجار من أن تنالهن وأبصار الفساق من أن تنظرهن، مع اعتقادنا فيهن غاية العفة والجلال»[٢].

وقال أحد الشعراء فيه [٣]:

---

(١) «النساء في الخطاب العربي المعاصر»، مجموعة باحثين، ص ٦٤.

(٢) الحِداد على امرأة الحدّاد، (ص ٣٤٠).

(٣) أضواء على البيئة التونسية، (ص ٣٢٤).

حذار من التجديد واخش المكائدا

فمن خالط الحدّاد نال السوائدا

فتى غره الشيطان وابتز عقله

فأصبح للدين الحنيف معاندا

يؤول آيات الكتاب بجهله

على أنه قد جاء للحق ذائدا!

وينقض أحكام الشريعة إن أتت

تخالف ما يهوى وأن كان فاسدا

وقال غيره في داعيات السفور [١] :

تعالت على سَنن العرب

وباتت تئن من الحجب

تود التبرج مسفرة

لتخلص من ربقة النُقُب

بربكِ عذراء تونس رفقا

بأهل البطولة والحسب

---

(١) السابق، (ص ٣٢٤).

فــلا تــستزيدي لــشقــوتهم
مــرارة هــزء مــن الأجــنبي

وقال آخر (١):

عيــشي كجــدتك البتــول ببيتهــا
وعــن التــبرج والهــوى أنهــاك
كــوني «كعائــشة» ولا تتقاعــسي
عــن كــل علــم فيــه نــور هــداك
تعلــيم أهــل الــشرق أنــتج «زينبــا»
وكــذاك «عائــشة» إليهــا تحــاكي
لا تكــشفي منــك الحجــاب فإنــه
صــون بــه ترضــين مــن ربــاك
ربي البنــين عــلى الفــضيلة والتقــى
واحيــيهم مــن سر لطــف حيــاك

وقال الشاعر القصار (٢):

(١) السابق، (ص ٣٠١).
(٢) السابق، (ص ٣٠٢-٣٠٣).

هل أنهن إذا رفعن حجابا

يبلغن من نيل العلا أسبابا

كلا فهتك الستر شر مصيبة

يغدو بها صرح العفاف خرابا

حسبوا التمدن في السفور وما دروا

أن السفور يُنصبر الأعرابا

ويُضل عن طرق الهداية مؤمنا

عرف الشريعة سنة وكتابا

ماذا تنال البنت إن كشفت على الـ

وجه المصون وقصرت أثوابا

وتبرجت وجها لوجه بالبغا

ة الجاهلين الصون والآدابا؟

هذا يغازلها وذا يرمي لها

قولاً بذيئاً جيئة وذهابا

وبجهلها تنقاد حتما للخنا

فتدنس الأعراض والأنسابا

وتتيـــه في واد الفجـــور كأنـــــها
خُلقـــت بغيًّـا لا تخـــاف عـــتابا
تلهو وتمرح في المراقــص بين أبــ
ـــناء الهـوى مـن حـولها أسـرابا

ثم بدأ نشر الجمعيات النسائية الموجهة من المستعمر؛ لتؤدي دورها في اختراق المجتمع النسائي التونسي، وتنشر فيه التغريب، ومن ذلك: في سنة ١٩٣٢ م أقامت إحدى الجمعيات تحت إشراف عقيلة المقيم العام (مونصرون) وأميرتين من الأسرة المالكة، إحداهما ابنة البشير صفر، الوطني المعروف: حفلة بدار الخلصي بالعاصمة، ودعت إليها عدداً كبيراً من الأوانس والسيدات التونسيات المسلمات واليهوديات والغربيات لجمع ما تجود به هممهن لمواساة منكوبي الإعصار.. [1]

ثم جاء عهد الهالك «أبورقيبة» الذي - كما يقول الأستاذ أحمد خالد -: «حقق في سنة ١٩٥٦م بعد أن أصبح المسؤول الأول في الدولة ما كان يصبو إليه صاحب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» أي الحداد. وذلك بإصداره قانون

(١) السابق، (ص ٢٦٦).

الأحوال الشخصية، ثم محاربته للحجاب أشد محاربة. وهو القائل: «أثرتْ في نفسي مطالعةُ كتاب الطاهر الحداد». والقائل: «أول عمل قمت به بعد أن توليت مقاليد الحكم في البلاد هو إصدار مجلة الأحوال الشخصية»[١]!

قلتُ: لم يُسلمك أسيادك الحكمَ إلا لأجل هذا!

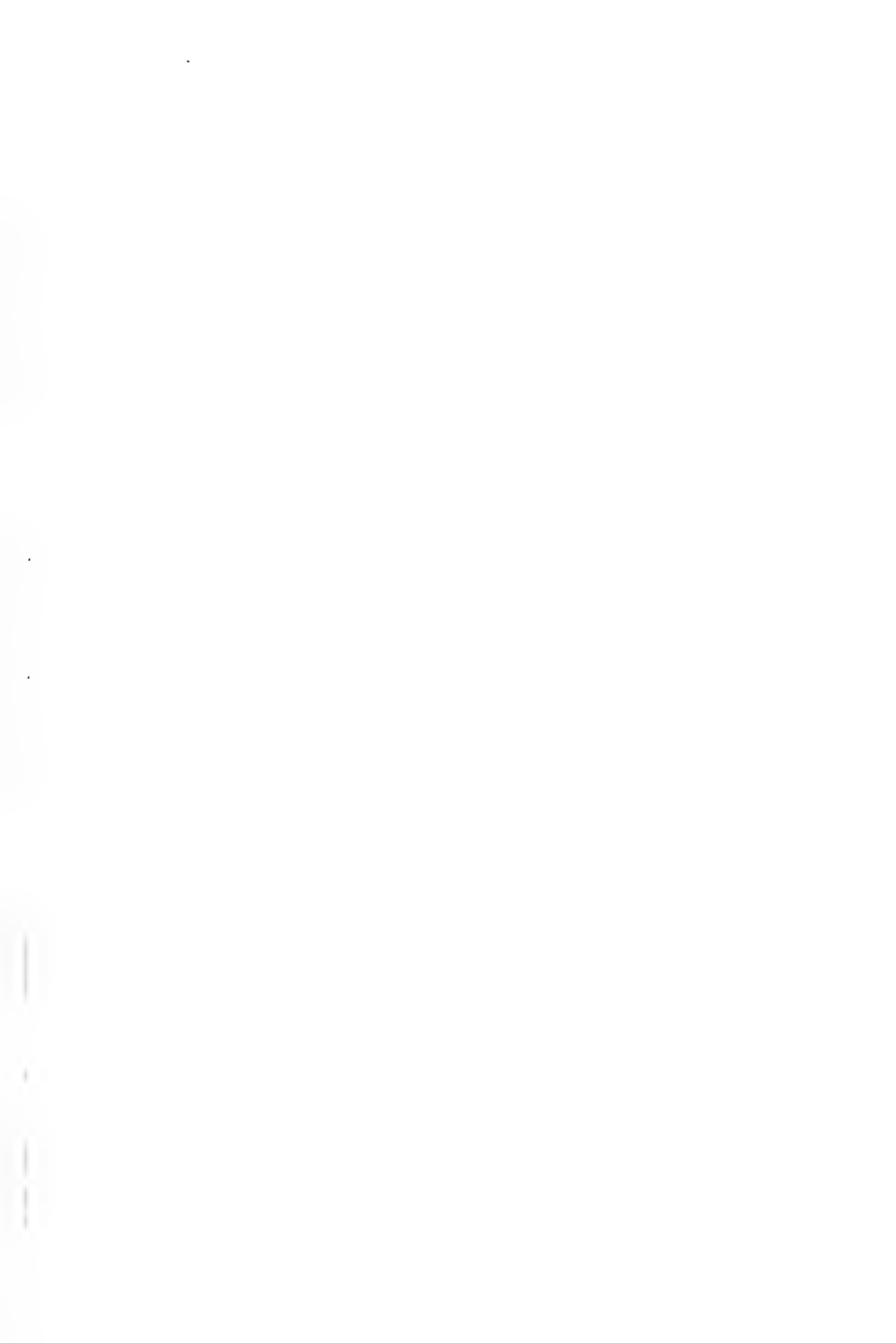
والآن يعيش المجتمع التونسي نهاية حقبة فرض السفور والتبرج الطارئة عليه، التي تبناها المنحرفون بدءًا من الحداد ثم بورقيبة إلى بن علي، فيشهد عودة مباركة للحجاب الشرعي تتحدى أعداء الفضيلة، انخلعت لها قلوب أعداء الله، ينبغي على أهلها: الصبر والثبات على دينهم، والاجتهاد في نشر الدعوة، ومحاربة الفساد، وتقديم البدائل الشرعية، والبيئة - التعليمية والعملية - الإسلامية الصالحة التي تغني

---

(١) النقول من: «النساء في الخطاب العربي المعاصر»، مجموعة باحثين، ص٩٢. ويُنظر للمزيد عن حركة التغريب في تونس: «قضية المرأة في فكر النهضة» لفرج بن رمضان (ص٤٠ وما بعدها)، و«مائة عام على تحرير المرأة»، (ص٢٦٥ وما بعدها)، و«المرأة العربية في الدين والمجتمع» لحسين العودات، (ص١٤٥، ١٥٤). مع التنبه إلى احتفاء الرسائل السابقة بالتغريب وأهله.

النساء المؤمنات عن ابتزاز أهل الفساد؛ إلى أن يستريح برّ أو يُستراح من فاجر.. والله الهادي والموفق.

* * *



(٩)

بدايات السفور في فلسطين



(٩)

بدايات السفور في فلسطين

كانت ـ نساء الأرض المباركة «فلسطين» ـ كغيرهن من نساء الأمة الإسلامية، يأتمرن بأحكام الشريعة في الحجاب؛ كما كانت بلاد الشام عموماً -كما مضى-، إلا أن دعوة التغريب طالت بعضهن، وأصابتهن بشررها، خاصة بعد عام ١٩٤٨م، الذي احتل فيه اليهود أرض فلسطين، فتفرق من تفرق من أهلها، وهاجر من هاجر، فسهُل على أرباب الحركة التغريبية استغلال الأوضاع لصالحهم.

أجرت مجلة «منبر الإسلام»! لقاء بعنوان: «لقاء مع أول سيدة نزعت الحجاب وحاضرت بين الرجال في غزة» قالت فيه: «السيدة عصام حمدي الحسيني - مفتشة لغة عربية ودين(!) في مديرية التعليم والثقافة بغزة وعضو المجلس الأعلى للكشافة والمرشدات وعضو مؤتمر المرأة العاملة. تعتبر أول من نزعت الحجاب سنة ١٩٥٠، وخرجت إلى الندوات وألقت المحاضرات بين الرجال لشرح قضية فلسطين(!)، وقد تعرضت من أجل هذا لهجوم الكثير من العقليات الرجعية(!) التي تبغي عرقلة التقدم والتطور للمرأة. قالت هذه المرأة عن نفسها:

«كنت أنا أول من رفع الحجاب، وألقيت المحاضرات بين جموع الرجال، فأخذت موقف الريادة(!) وكنت وقتها ناظرة مدرسة فأصبحت قدوة لباقي السيدات»[(١)]!

قلت: وقد أكدت هذا الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان

(١) مجلة «منبر الإسلام»(!) الصادرة عن الأزهر(!) في عهد جمال عبدالناصر. (العدد ١٢ السنة ٢٢).

في ذكرياتها[1]. قالت عن المجتمع الفلسطيني: «بعد نكبة فلسطين بعامين بدأ التحول الاجتماعي، والتغيير الذي يحدث عادة بعد الحروب، بدأ هذا التحول ينقل الحياة الاجتماعية في نابلس من حال إلى حال، وكان أهم مظاهره: **رفع الحجاب عن وجه المرأة**.. وكذلك الزيارات العائلية المختلطة - إلى أن قالت -: كانت أمي أول امرأة من جيلها ترفع الحجاب في نابلس».

قلت: قال ﷺ: **«مَن سنَّ سُنَّة سيئة فعُمل بها بعده، كُتب عليه مثل وزر مَن عمل بها، ولا ينقص مِن أوزارهم شيء»**[2].

* * *

(١) التي سمتها: «رحلة جبلية.. رحلة صعبة»، ص ٢٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).



(١٠)

بدايات السفور في الهند



(١٠)

بدايات السفور في الهند

قال الأستاذ خادم حسين بخش في كتابه «أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية: «أول عقبة اصطدم بها دعاة المساواة هي الحجاب الذي ورثته الهند كابراً عن كابر، فلم يكن من السهل إقناع الآباء والأمهات بإخراج بناتهم دون ستر، فأخذوا يفكرون في زحزحة هذا الحاجز، فسخروا أقلاماً للهجوم عليه والإطاحة به، فترى مَانُوْراما الهندوكية تنص على «أن قيود الحجاب لم تألفها المرأة الهندية إلا بعد اصطدام الهندوس بالمسلمين،

وأن الخوف على سلامة النساء من الغزاة والمغيرين أدى إلى التقليل من حرية النساء، وتطلبت الوقاية أن يقل سماح الأب أو الزوج لابنته أو زوجته بالخروج من المنزل عن ذي قبل، لأنه لم يكن من المعروف متى ستواجه المدينة خطر المغيرين عليها»(١).

ويعيد إلى الأذهان كارسان دتاسي أن الهندوس يردون احتجاب الهندوسيات إلى ما جلبه المسلمون من العادات والتقاليد، وأن الحجاب بموجب تشريعات منوسمرني الهندوسية لا يجب، وللمرأة أن تذهب إلى التعليم دون ستر أو حجاب»(٢).

ولخص موضوع الحجاب أحد كتاب المسلمين الذي زار خمساً وعشرين بلداً إسلامياً للتعرف على حقيقته فقال: «إن ما يُلزمه المسلمون اليوم نساءهم من الاحتجاب لا يمت إلى الإسلام بصلة، وإن المسلمين الهنود أتوا به من قبل الهندوس والراجبوت الذين أسلموا مع عائلاتهم التي كانت

---

(١) الهند شعبها وأراضيها ص ١١٧.

(٢) مقالات كارسان دتاسي (١/ ١٣٩).

تحتجب قبل الإسلام، فظل الحجاب عندهم حتى اليوم»[١].

ويسند الفكرة آخر فيصرح: «إن ما نرى من الحجاب في الهند وباكستان لا مثيل له في جميع الدول الإسلامية، بل إنه تقليد موروث نتج عن الاحتكاكات المحلية، وتوسعت دائرته حين دالت دولة الإسلام، وكان أشده وأعمه في الطبقات الوسطى قبل الاستقلال. وأخذ الوضع يتحول بعده إلى نبذ التقاليد السيئة فتضاءل ورجع القهقري»[٢]..

وتلاعب آخرون بعقول الأمة فحصروا جميع عيوب المرأة المسلمة من جهل ومرض، وعدم مسايرة للحياة الاجتماعية في الحجاب، وسود واحد من أجرأ دعاة السفور بضعاً وعشرين صفحة في ذلك، وكَالَ للحجاب كيل

---

(١) بيبر زاده شمس الدين رسمي بردي كي نقصانات أور إسلامي بردي كي نشانات «مضار الحجاب التقليدي وسيماء الحجاب الإسلامي» ص ٣.

(٢) شاهد حسين الرزاقي باكستاني مسلمانون كي رسوم ورواج «عادات المسلمين الباكستانيين وتقاليدهم» ص ٢٧٨، وانظر: مظهر الدين الصديقي، إسلام أورعورت « الإسلام والمرأة» ص ٢٠٣، ومحمد ميديوك المسلم الإنجليزي تهذيب إسلامي «الحضارة الإسلامية» ص ٢٠٣.

السوء[١]. وتقدم الأديب عبدالحليم شرر عن هؤلاء خطوة فوصف الحجاب بأنه «هو الحجاب الأكبر، ومن المشكوك فيه مخافظته على عفة المرأة وطهارتها، وأن وجوده على الوجه سهل للمرأة كل ما استحت من ارتكابه في الظاهر والعلن، وإن هو إلا عقاب تلتزم به زواني النساء»[٢]!!

وتهدد مجلة «إحسان» اللاهورية باتخاذ الإجراءات الكمالية التركية إذا لم تستجب الأمة الباكستانية لآراء دعاة الإصلاح(!) فتقول: «لن يستحكم بنيان الاستقلال ولن تتحد آراء الأمة إلا عن أحد طريقين: أن يقود الأمة دكتاتور كمصطفى كمال فيعلن للملأ أنه لن تبقى امرأة متحجبة بعد اليوم، وأنها ستكلف بالبحث عن معاشها بنفسها، ولن تظل حملاً على الرجل بعد الآن، أو أن يكون في الشعب شعور برقي الأمة فيتفادون التعصبات الشخصية ويضحون بمصالحهم للصالح العام...، وما زال الطريق الأخير مفتوحاً

---

(١) انظر رسمي برد ص ٣٦ ـ ٦٥، والقسيس الدكتور ج- هـ آربسن حقوق وفرائض نسوان «حقوق النسوة وفرائضهن» ص ١٢، وغلام أحمد «تبويب القرآن» (١/ ٣٨٤)، «وحقائق عن باكستان» ص ١١٧ و«إسلام اورعورت» ص ١٤٩.

(٢) بردة (الحجاب) ص ٣.

يترقب استجابة الأمة، فإن لم تستجب فسيخرج من بين صفوفها الحاكم المستبد، ويقودها إلى الطريق المنشود، أو تذهبُ قوتها فتعود إلى الاستعمار من جديد»[١]..

وزعم الإسماعيلي أغا خان أن حجاب المرأة وانفصالها عن الرجل وانزواءها عنه هو من التقاليد الشرقية الدخيلة على الإسلام... ومن هنا لا تعرف المرأة الإسماعيلية الحجاب والانزواء، بل إنها تشارك الرجال في المجالس والمعابد، وتعين بعلها وأباها وأخاها في جميع شعب الحياة الاقتصادية[٢].

وإن تتبعت خطوط حركة السفور وجدتها ترتبط بحركة عليكرة منذ نشأتها، فها هو أحمد خان[٣] يُستشار في حجاب المسلمات: هل هو حجاب القرآن أو لا؟ فجيب قائلاً: «نرى

---

(١) ص ٣ عدد نوفمبر ١٩٥٠م.

(٢) سيد بركات أحمد، روداد برده «محضر الحجاب» ص ٣٥٦.

(٣) هو أحمد خان بن محمد متقي خان ولد في دهلي (١٢٤٢- ١٣١٦هـ)، وكان مصلحاً اجتماعياً، ومؤرخاً أثرياً، وسياسياً، ولقب بسيد. أسس جامعة عليكرة بالهند، وكان يدعو إلى تعظيم الإنجليز وترك جهادهم ومقاتلتهم. انظر لبيان تفاصيل فكره، والرد عليه: «مفهوم تجديد الدين» للأستاذ بسطامي سعيد، (ص١٢٠-١٣٥).

صحافة اليوم تكتب بحوثاً عن الحجاب سلباً وإيجاباً، وحسبنا أن نحمل طابع الرجعية في هذا الموضوع، فنخالف رأي أصحابنا، ونظل نعتقد أن الحجاب المعمول به في الأوساط الإسلامية أمر حسن، وأن البحث عنه من كونه مطلوب القرآن أو لا؟ أمر سخيف لا يجدي نفعاً، لأن الرجال لو امتثلوا أحكام القرآن في الأفعال والعادات كان لهم الحق في إثارة مثل هذه القضية، وما داموا منصرفين عن أنفسهم فالبحث منهم عن حجاب القرآن أمر غير معقول.

وأما ما يُظن: أن رفع الحجاب يقرب المسافة ويهيئ فرض الصداقة، ولارتباط بالإنجليز؛ فهو خطأ مكشوف، لأن ذكورنا لم يوطئوا أنفسهم لمثل تلك الصلات، هيئوا أنفسكم ثم ابحثوا بعد ذلك عن الأمور الخاصة بالنساء»[1] ويبدو أن قضية السفور لم تكتسب الأنصار والمدافعين إلا بعد أن احتضنتها عليكره بترجمة كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»، بإيحاء من محسن الملك الذي تولى رياسة عليكرة بعد وفاة أحمد خان، فنُشر الكتاب على صفحات مجلة «عليكرة»

(١) مقالات ج ٥/ ١٨٦.

الرسمية، ثم ظهر للعامة في صورة كتاب مستقل، ثم تتابعت الصحافة تحض على نزع الحجاب دون هوادة»[(١)]..

ويصف **الشيخ عبدالماجد الدريابادي** وضع المرأة وتطورها الكشفي فيقول: «رفع الحجاب وبرز كل منظر مثير، **فكان البدء بكشف الوجه**، ثم تبعه رفع البصر، فالكشف عن السواعد، ثم السيقان، فالعودة إلى سترها بقماش رقيق يشبه لون السيقان، ثم أتى بعدهما تعرية ما خلف الرقبة، ثم تقدمت الحضارة فعرت جزءاً من أعلى الصدر...، وإن سمة التمدن اليوم أن يُكشف عن جزء من أسفل البطن، وإبراز السرة أمام الأعين الجائعة»[(٢)].

وهكذا تخلت المرأة عن قيمها، وأصبحت مبتذلة، بعد أن ودعت مستقرها الذي تستمد منه سيادتها الحقيقية، غزاها دعاة السوء في عزها وكرامتها باسم تحقيق المساواة في الحقوق، والتحرر من القيود الموروثة، فقذفوا بها في

---

(١) انظر: موج كوثر ص ٢٥٣، ومجلة خاتون «المرأة» العليكرية ص ١٥٥ عدد أبريل ١٩١٠م، ومجلة جامعة (٢٠/ ٥١٩) عدد جون ١٩٣١م.

(٢) مجلة صدق جديد اللكهنوية (٨/ ١) ١٤/ ٢/ ١٩٥٨م.

المنزلق الذي أعجزهم رؤيتها فيه من قبل، وها هي ذي قد تحررت من تبعات العفة والحياء، واكتسبت رذائل الغلظة والتهتك، وساوت الرجل في غشيان المنتديات والملاهي والفنادق والمسارح، وداعبت الأجانب ومازحتهم، وترددت إلى الملاعب والسينما كالفتيان سواء بسواء، ترجلت وشقيت على حساب المنزل والأولاد، دون أن تربح من تخليها عن الحجاب ما منيت به من الرفاهية والتقدم.

ويلمس المقارن الفرق الواضح في مسيرة الحجاب بين ما كان عليه الحال بعد الاستقلال مباشرة وما هو عليه اليوم، إذ أخذ الوضع يتحول لصالح الحجاب بعد صحوة المسلمات، ومشاهدتهن الفساد والرزايا نتيجة السفور والتهتك، فلن تعدم اليوم رؤية المحجبات في كليات الطب التي وضعت أسسها على نزع الحجاب، وها هي نقابة المحامين تلح على النساء أن يخرجن في مظاهرة للاحتجاج على قانون الشهادة الإسلامي - الذي جعل شهادة امرأتين مساوية لشهادة رجل واحدٍ - فلا تخرج إلا مائتان وبضع وخمسون امرأة في مدينة لاهور، التي يربو سكانها على ثمانمائة ألف نسمة، وما ذالك إلا دليل على الصحوة

الإسلامية بين النساء، فالمؤشر صاعد، وعودة النساء إلى الشرع أمر ملموس، والخير في حركات البعث الإسلامية وعلماء المسلمين». انتهى كلام الأستاذ خادم حسين ـ وفقه الله ـ[١].

ويقول الأستاذ أليف الدين الترابي: «وجدير بالذكر أن المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية بدأت فيه الخلاعة والسفور بعدما التحقت الطالبات المسلمات بالكليات الحديثة، ولاسيما بكليات التعليم المختلط، فقامت كثيرات من تلك الفتيات المثقفات بنزع الحجاب الشرعي؛ ليشاركن في النشاطات الاجتماعية مع الرجال جنباً إلى جنب»[٢].

قلت: قد جاء في مجلة «اللواء» المصرية نقلاً عن مصطفى كامل ـ مؤسس الحزب الوطني بمصر ـ: «إن كتاب تحرير المرأة ـ لقاسم أمين ـ قد انتشر في أنحاء الهند، واهتم الإنجليز ببث قضاياه، وإذاعة مسائله، اهتمامًا كبيرًا؛ لما وراء

---

(١) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية، (ص ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٢) أبو الأعلى المودودي، ص ٩٥.

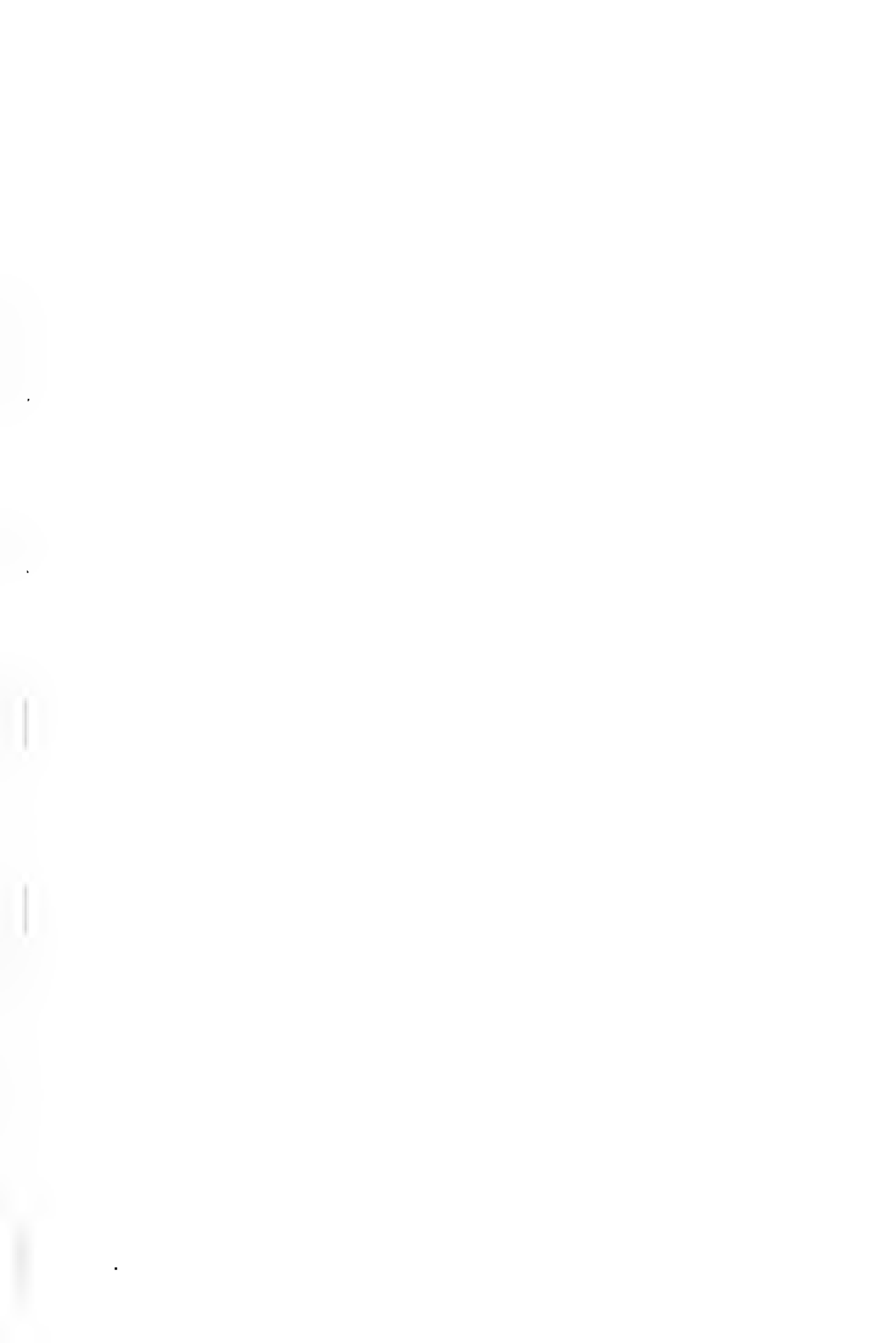
العمل به من فوائد لهم»[١].

* * *

(١) «اللواء»، عدد ٩/ ٢/ ١٩٠١م.

(١١)

بدايات السفور في ألبانيا



(١١)
بدايات السفور في ألبانيا

عاشت ألبانيا إسلامها في ظل الدولة العثمانية، وكانت المرأة الألبانية كأختها المسلمة، تلتزم الحجاب الشرعي، وتستر وجهها عن الأجانب؛ إلى أن تآمر الأعداء على ألبانيا بسقوط الدولة العثمانية. فوقعت ألبانيا بأيدي الاستعمار؛ الذي ووجه بصمودٍ من أهلها وتمسكٍ بالدين، فما كان من المستعمرين إلا أن أورثوا البلاد أحد «عملائهم» ليقوم بمهمة محاربة شرائع الإسلام - ومنها الحجاب - نيابة عنهم.

فقد تولى «أحمد زوغو» عرش ألبانيا سنة ١٣٤٧هـ -

١٩٢٨م، وكان رئيس جمهورية، إلا أن الغرب حثه - كما يقول د رجب بويا ـ «على تحويل ألبانيا من الجمهورية إلى الملكية؛ كي يبقى في الحكم مدى الحياة، وقد أعجبه ذلك، فأمر بتحويلها إلى الملكية سنة ١٩٢٨م وأعلن نفسه ملكًا عليها» [١].

كان «أحمد زوغو» كما يقول المؤرخ محمود شاكر «ملكًا سيئًا، حاول تغيير العادات ومسايرة الدول الأوربية؛ ففرض السفور على نساء وطنه؛ مما اضطر عددًا من المواطنين إلى مغادرة البلاد والاتجاه نحو بقية البلاد الإسلامية» [٢].

ففي سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م أصدر «أحمد زوغو» قراراً بنزع نقاب المرأة المسلمة، وإلزام موظفي الدولة، وطلاب المدرسة الثانوية بلبس البرنيطة، وقد عارضه العلماء في ذلك معارضة شديدة، وتصدوا لأفكاره، وقراراته غير الإسلامية، فعمل من جانبه على إسكات صوت الحق، وإخراس الألسن

---

(١) الألبانيون والإسلام، ص ٧٣.

(٢) المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، ص ١١٨.

التي تصدت لأفكاره الملحدة، فاضطهد العلماء، وصب جام غضبه عليهم، مما جعل البعض منهم يفر من هذا الظلم والطغيان، تاركاً وطنه، ويذهب بنفسه وآله إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

لقد كانت نهاية «زوغو» عبرة للمعتبرين؛ لأنه فر من بلاده بسبب أن الغرب انقلب عليه! يقول صاحب كتاب «ألبانيا بلد النسور»(١): «لقد خان زوغو شعبه ليخدم الاستعمار.. فخانه الاستعمار وطرده».

ويقول الدكتور سيد محمد يونس: «بعد الحرب العالمية الثانية حكَم الشيوعيون البلاد الإسلامية التي وقعت تحت سيطرتهم بالحديد والنار، واستعملوا الشدة والقسوة في معاملة هذه الشعوب، وحرموهم من خيرات بلادهم، واستصفوها لأنفسهم، ومنعوهم من مباشرة شعائرهم الدينية. وفي ألبانيا حالوا بشتى الطرق وكافة الوسائل القضاء على المسلمين فيها، والتضييق عليهم في الأرزاق، ولم يكتفوا بذلك، بل ألغوا المناهج الإسلامية التي تدرس في

---

(١) ص ١٧-١٨.

المدارس، والمعاهد العلمية، وفرضوا عليها رقابة مشددة وصارمة على المؤسسات العلمية والمدرسين؛ وذلك بقصد القضاء على الإسلام وتخريج خريجين لا يعرفون شيئاً عن الإسلام سوى اسمه. ولم تسلم منهم البيوت، فقاموا بهدم كثير من دور ومنازل المسلمين؛ وكذلك أفسدوا الحرث والنسل، وعاثوا في الأرض فساداً، وهدموا المساجد، التي يذكر فيها اسم الله -تعالى-. كما أطاحوا بالقيادة الشرعية للمسلمين، بإلغاء منصب «المفتي الأعظم» في العاصمة «تيرانا»، وكذلك مجلس العلماء الذين كانوا يؤدون رسالتهم بجد ونشاط، في أنحاء العالم، عن طريقه.

وفي سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٧م أصدرت الحكومة الشيوعية قراراً بمنع كافة الأنشطة الدينية في جميع البلاد.

وكذلك دعت إلى سياسة الاختلاط بين الرجال والنساء في العمل، وفي الحفلات، ورغّبت النساء في السفور، كما أرغم الشيوعيون المسلمين في الجيش وكتائب العمل على أكل لحم الخنزير. واعتقلت علماء الإسلام، وزجت بهم في غياهب سجون، لتقضي على صوت الإسلام في البلاد.

بعد أن سقطت الشيوعية، وذهبت إلى غير رجعة، تنفس

المسلمون الألبانيون -وغيرهم من الذين كانوا تحت نير الحكم الشيوعي الفاسد- الصعداء، ونعموا بالراحة، بعد طول عناء، وكبت وإرهاق وشقاء، فعملوا على النهوض بمرافق البلاد، والأخذ بيدها نحو التحضر والرقي.

وأولى الألبانيون عنايتهم إلى إقامة بعض المساجد التي تهدمت، ففي «أشقودرة» أعيد الآن فتح مسجدين، و(٢٣) مسجداً في (٢٣) قرية، وبدئ في بعضها تدريس مبادئ الإسلام لأولاد المسلمين. وعلى الرغم من انطلاق الشعب الألباني نحو التقدم والرقي بخطى سريعة إلا أنهم في حاجة إلى مساعدة إخوانهم المسلمين»[١].

فائدة: كانت عائلة الشيخ الألباني - رحمه الله - ممن فر من ظلم أحمد زوغو، وقد تعرض له الشيخ في سلسلة الأحاديث الصحيحة عند حديث[٢] «ستكون هجرة بعد هجرة..» قائلا: «في الحديث بشرى لنا آل الوالد الذي هاجر بأهله من بلده أشقودرة عاصمة ألبانيا يومئذ، فرارًا بالدين من

(١) الإسلام والمسلمون في ألبانيا، ص ٨٩ ـ ١٠٠.
(٢) رقم (٣٢٠٣).

ثورة أحمد زوغو، أزاغ الله قلبه، الذي بدأ يسير في المسلمين الألبان مسيرة سلفه أتاتورك في تركيا..».

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

(١٢)

بدايات السفور في البحرين



(١٢)

بدايات السفور في البحرين[١]

« كانت المرأة في المجتمع البحريني ملتزمة بالحجاب الشرعي الذي يغطي سائر جسدها، ولم يكن معروفاً في المجتمع آنذاك سفور النساء أو تبرجهن، بل كان التزام الحجاب سِمة عامة لنساء ذلك المجتمع، وهذا الالتزام بالحجاب لم يكن مقصوراً على فئة معينة من النساء وإنما كان عامًّا في النساء سواء كُن منتسبات لأسر غنية أم فقيرة،

---

(١) أنقله من رسالة: «المدارس الأجنبية ـ واقعها وآثارها»، للأخ الشيخ عبدالعزيز ابن أحمد البداح ـ وفقه الله ـ، (ص٨٧-٩١) و(٣٣٥-٣٣٧) بتصرف يسير.

من طبقة عالية أم متوسطة؛ (فمن الأشياء المتبعة في المجتمع البحريني والتي يرى ضرورة تطبيقها لبس المرأة للعباءة، ففي الثلاثينات ـ الميلادية ـ وما قبلها لا تظهر أي سيدة في الطريق العام دون ارتداء عباءة سوداء سميكة تغطيها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها...)[١].

وأكدت هذا المعنى المنصِّرة (إليانور تيلور) ـ التي زارت المنامة في العام ١٩١٠م ـ من خلال ما شاهدته من احتجاب النساء ورفضهن الكشف للرجال الأجانب عنهن[٢].

بل قبل هذا التاريخ في عام ١٨٤٢م أشار القبطان الفرنسي (ثيوجين بيج) خلال زيارته للبحرين بأن النساء كن يتجنبنهم ويختبئن، ولم يروا وجوههن قط إلا بصورة سرية أو مفاجئة[٣].

---

(١) مذكرات بلجريف، ترجمة مهدي عبدالله، (ص٨٩).

(٢) رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية، ترجمة: خالد البسام، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٢م، (ص٩٢).

(٣) مقتطفات من سجل القائد البحري (بيج)، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد الرابع والأربعون، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، (ص٣٨).

ولما كتب حافظ وهبه عن الجزيرة العربية في الفترة (١٣٣٣هـ - ١٣٥٣هـ/ ١٩١٥م - ١٩٣٤م) ووصف حال نسائها فذكر عنهن التزامهن بالحجاب وملازمتهن لبيوتهن وعدم خروجهن منها إلا لضرورة(١).

ولغلبة هذا الأمر في المجتمع سرى حتى على غير البحرينيات ممن يفدن للعمل فيها، فقد كان واقع المجتمع يلزمهن بالحجاب طوعاً أو كرهاً، ويذكر (بلجريف) في هذا الصدد - عام ١٠٣٠م - حادثة (سنية طبارة) اللبنانية الجنسية زوجة (داهم فائق) ناظر المعارف والتي لم تكن ترتدي الحجاب في بيروت وكانت تلعب التنس، أما في البحرين فالحجاب مفروض ولا مجال للتنس(٢).

ولا يمكن اعتبار احتجاب النساء بشكل كامل، وإجماع نساء البلد عليه في ذلك الوقت مجرد عادة من العادات الاجتماعية الخالية من البعد الديني، والإطار الشرعي، فإن

---

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، حافظ وهبه، دار الآفاق العربية، (ص١١٣).

(٢) تشارلز بلجريف السيرة والمذكرات، مي الخليفة، (ص٣٤٣).

علماء الشريعة متوافرون في المجتمع، ولهذا يمكن القول بأن الرأي الفقهي السائد في ذلك يرى وجوب احتجاب المرأة بالكامل وعدم إظهار شيء من زينتها، وهو الذي كان مستنداً لهذا المظهر الشرعي. وعليه فإن تغيير حال المرأة في المجتمع وانتقالها من الاحتجاب إلى التبرج والسفور لم يكن أصلاً في المجتمع، بل هو طارئ ووافد عليه.

ولما وقع التبرج والسفور كتبت بعض الأقلام مستنكرة ذلك معتبرة إياه أحد آثار الاحتلال، فقد كتب الأستاذ عبدالعزيز بن محمد القاضي(١) مقالاً حول هذا الموضوع متسائلاً عن تبرج المرأة وسفورها ومن يقف خلفه، «ترى من فرض على المرأة السفور المتبرج ومن اجتذبها إلى المجتمع وزج بها في معترك الحياة وتوافه الحياة؟ أهي الحرية أم إنصاف المرأة أو المساواة بين الرجل والمرأة هل هي هذه المبادئ البراقة ذات الجرس الناعم والصدى الرنان؟..» ثم

---

(١) عبدالعزيز بن محمد بن حمد القاضي، أديب ومثقف، ولد في عنيزة عام ١٣٤٣هـ، درس القرآن الكريم، ومبادئ الحساب في بلده، ثم سافر إلى والده في البحرين عام ١٣٥٣هـ، ودرس في مدارسها النظامية. خزانة التواريخ النجدية، عبدالله البسام، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (١/ ١٦٣).

ذكر صوراً من استغلال المرأة المتبرجة في الإعلانات التجارية وصالات الرقص وحفلات الفساد وتساءل: ولو كانت المرأة ملتزمة لرداء الحشمة لما أمكن استغلالها هذا الاستغلال الفاحش المسف.

إن الاحتلال أدرك ضالته ووجد مقصوده في تبرج المرأة وسفورها»[١].

ويمكن القول بأن ظاهرة التبرج والسفور بدأت منذ الخمسينات الميلادية، وبدأ سفور المرأة عن وجهها في البحرين في أول محاولة لنزع الحجاب ـ كما حدث في بعض البلاد الإسلامية ـ من خلال حرق الحجاب في إحدى المظاهرات.

وقد اختلف الباحثون في تفاصيل هذه الحادثة ووقت حدوثها، فيرى الأستاذ (علي تقي) حصول ذلك في الخمسينات الميلادية عندما قامت إحدى الفتيات من طالبات المدرسة الثانوية بنزع حجابها وأخذت تخطب في

---

(١) مجلة صوت البحرين، العدد التاسع والعاشر، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٧٣هـ، (ص١٦).

الجماهير أثناء إحدى المظاهرات السياسية(١). ويختلف رأي (رجاء بن سلامة) في إيراد هذه الحادثة إذ يرى أنه خلال إحدى المظاهرات العارمة بعد أحداث عام ١٩٦٥م قامت مجموعة من المتظاهرات بإحراق العباءة السوداء(٢).

وأصبح التبرج والسفور في تلك الفترة سائداً، ومن يطَّلع على بعض الصور القديمة يرى كيف انتشر ما يسمى بالميني جوب وهو ما يكشف ما فوق الركبة.

ثم بدأت عودة الحجاب مرة أخرى مع مطلع السبعينات وبروز الصحوة الإسلامية ـ ولله الحمد والمنة ـ.

ولقد بدأ دخول السفور للمجتمع البحريني من خلال نافذتين:

النافذة الأولى: التعليم الأجنبي.

---

(١) المرأة البحرينية في التعليم والعمل، الدكتور علي تقي، بحث غير منشور، ١٩٧٧م، (ص٣٠).

(٢) معركة السفور الجديدة، رجاء سلامة، (ص٤٥). وانظر: المرأة في الخليج العربي وتحولات الحداثة العسيرة، باقر سلمان النجار، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، (ص٤٤). الخليج ليس نفطاً، الدكتور محمد الرميحي، دار الجديد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، (ص٢٤٧).

النافذة الثانيـــة: العائدات من الابتعاث الخارجي.

ثم تبع ذلك دور المجلات والصحف التي دعت المرأة صراحة إلى التبرج والسفور. وكان لمجلة صدى الأسبوع[١] في ذلك الوقت دور في هذا الجانب، فقد نشرت في أحد أعدادها (أول مهندسة ديكور بحرينية وخليجية من جامعة القاهرة) [٢]، وفي عدد آخر (أول بحرينية حصلت على درجة الماجستير في علوم صحة البيئة من الجامعة الأمريكية ببيروت)[٣].

وأول من نزعن الحجاب في البحرين كن طالبات مدرسة الإرسالية الأمريكية[٤]. كما كانت أول ممرضة في البحرين وتدعى فاطمة الزياني - وهي سافرة - خريجة مدرسة الإرسالية الأمريكية وهي أول امرأة بحرينية تعطى

---

(١) صحيفة صدى الأسبوع: جريدة أسبوعية سياسية جامعة، رأس تحريرها: علي سيار، صدرت في العام ١٩٦٩م، ثم تحولت إلى مجلة في العام ١٩٧١م. الصحافة في البحرين، (ص٦٤).

(٢) مجلة صدى الأسبوع، العدد (٣٤٧)، التاريخ ١٥/ فبراير/ ١٩٧٧م، (ص٢٧).

(٣) مجلة صدى الأسبوع، العدد (٣٤١)، التاريخ ٤/ يناير/ ١٩٧٧م، (ص٣١).

(٤) مذكرات شريفة الأمريكانية، ترجمة الدكتور عيسى أمين، (ص٢٥٩).

رخصة سياقة وتقود السيارة أيضاً[١] ـ بداية الخمسينات الميلادية[٢] ـ وهذا يعطي دلالة واضحة في تورط التنصير وآلياته في سفور المرأة وخروجها عن أحكام الإسلام.

وجرى خلع الحجاب في البحرين كما تم في البلاد الإسلامية الأخرى، إذ تم حرقه خلال إحدى المظاهرات النسائية[٣].

ولكن ـ كما سبق، بعد انتشار الوعي الإسلامي والاطلاع على كيد الأعداء؛ عادت النساء المسلمات في البحرين إلى

---

(١) يقول كولونيل ديكسون ـ عمل وكيلاً سياسيًا في البحرين ـ: «أما تأثير السيارة على سيدات المدن فعميق ولا يمكن الرجعة فيه، وبالرغم من أنهن لازلن يركبن السيارات وهن محجبات والستائر مسدلة إلا أنهن يستطعن الآن زيارة أماكن كان من المتعذر عليهن الوصول إليها. والأرجح أن السيارة سوف تكون عاملاً هامًّا في القضاء الفعلي على الحجاب...». الكويت وجاراتها، هـ.ر.ب. ديكسون، ترجمة: فتوح الخترش، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، (ص٦٠٧).

(٢) حكايات من البحرين، خالد البسام، (ص٦٥).

(٣) راجع (ص٩١)، وانظر: الحركة النسائية العربية في القرن العشرين، نورية السداني، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، من غير ناشر، فقد تحدثت عن حرق الحجاب في الكويت والبحرين.

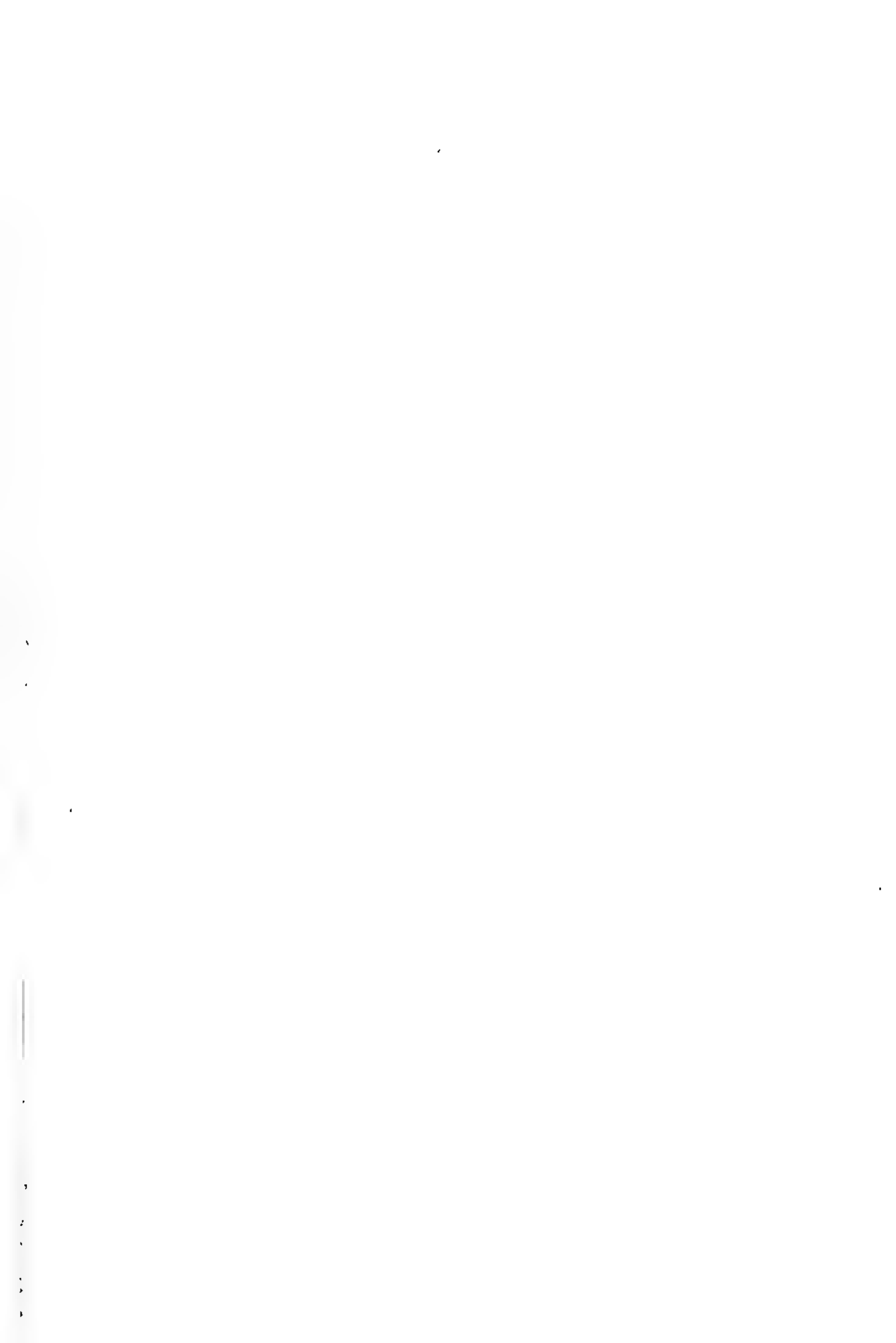
الحجاب الشرعي، طاعة لربهن واستجابة لحكمه، ومن بقيت منهم على سفورها فقد أقيمت عليها الحجة.

أسأل الله أن يهدي ضال المسلمين، ويوفقهم ـ حكاماً ومحكومين ـ إلى الالتزام بشرع الله الذي فيه عزّهم وفلاحهم في الدارين.

* * *

(١٣)

بدايات السفور في الكويت



(١٣)

بدايات السفور في الكويت

هذه حلقة جديدة من حلقات «بدايات السفور في العالم الإسلامي» خصصتها للحديث عن بداية سفور (بعض) النساء في الكويت. وقد جاءت متوافقة مع ما سمعناه قبل أيام من إقحام المرأة المسلمة هناك في العملية السياسية التي لا تليق بها «شرعًا ولا واقعًا»، وقد أفتى بذلك علماء وعقلاء الكويت» (١).

---

(١) انظر رسالة: «فتاوى وكلمات لعلماء الإسلام قديمًا وحديثًا حول تمكين المرأة من الترشيح والانتخاب»، للدكتور عبدالرزاق الشايجي ـ وفقه الله ـ.

ولكن الحكومة هناك ومعها بعض النواب - هداهم الله - لم يأبهوا بهذا؛ استجابة منهم - شعروا أو لم يشعروا - لضغوطات الغرب؛ وعلى رأسه الحليفة القديمة بريطانيا! ثم أمريكا. وهذا لم يعد يخفى على عاقل يتابع الأحداث - ولله الحمد -.

ولذا فإنك تجد هذا الخبر لم يتوقف عنده أكثر الناس أو يتحمسوا - حتى بعض المؤيدين له! - لعلمهم أنه مجرد خطوة جديدة من خطوات التنازلات والإفساد، لن يُقدم أو يؤخر شيئًا في حال المسلمين؛ بل سيزيدهم وهنًا على وهن، وتفككًا فوق تفكك. وقد رأوا عواقبه في بلاد أخرى من بلدان المسلمين.

وقد أجاد الكتاب الشرفاء الفضلاء من أهل الكويت عندما دبجوا المقالات في بيان ما أوجزته آنفًا، وسخر بعضهم من حال الحكومة هناك، حيث المسارعة في إرضاء بني الأصفر؛ ولو بالضغط على النواب وإرهابهم، أو ترغيبهم ومساومتهم هم والمجتمع بزيادة الرواتب!!

أعود - بعد هذا - للحديث عن بداية سفور (بعض) النسوة في الكويت فأقول: لا أظن أحدًا - لقُرب العهد -

يُخالف في أن جميع النساء المسلمات في الكويت كن إلى عهد قريب لا يتجاوز ٣٠ - ٤٠ عامًا يلتزمن بالحجاب الشرعي «ستر الوجه أو النقاب»؛ إلى أن وقع بعضهن في التغريب المذموم في عهد حاكم الكويت عبدالله السالم (١٩٦٥-١٩٥٠م).

فإذا كان حاكم الكويت القديم مبارك الصباح (١٩١٦-١٨٩٦م) - الذي تولى الحكم بعد قتله لأخويه غدرًا!! - قد رضي حماية بريطانيا سياسيًا وخارجيًا - دون التدخل الداخلي -، فوقع معها «معاهدة الحماية» مدخلا البلاد تحت الوصاية البريطانية[1]؛ فإن عبدالله السالم قد اجتهد - بجهل أو بغيره - في «تغريب» البلاد داخليًا؛ حيث تم في عهده: الحكم بالدستور الجاهلي؛ حيث أصبحت الشريعة الإسلامية مجرد (مصدر) من مصادر التشريع[2]! وليست (المصدر) الرئيس

---

(١) ذكر حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» (ص٨١) أن مبارك الصباح لجأ إلى الإنجليز بسبب ضغط الأتراك عليه! ولا شك أن الكفار يتحينون الفرص للتدخل في شئون الدول الإسلامية، فكان الواجب على تلك الدول أن لا تمكنهم من ذلك، وتحل مشاكلها فيما بينها.

(٢) انظر: «ولادة دستور الكويت» للأستاذ أحمد علي دبين.

الوحيد، وتم في عهده تأسيس البنوك الربوية تحت إدارة بريطانية، وإلغاء علم الكويت القديم الذي يحمل كان كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» واستبداله بالعلم الحالي، وإغراق البلاد في اللهو - سينما ومسرح.. -، ودعم تغريب المرأة المسلمة من أحكام الشريعة. بعد هذا حصلت الكويت على استقلالها!! (١٩٦٢م).

وهذه سياسة استعمارية خبيثة؛ حدثت في بلاد عديدة؛ لا رحيل للاستعمار إلا بعد ضمان التغريب، وعدم الحكم بالشريعة!

يقول الزعيم محمود بهجت سنان في كتابه «الكويت زهرة الخليج العربي»[١] متحدثًا عن ذكرياته في الكويت: «إن المرأة الكويتية حتى سنين قلائل كانت ترتدي الجلباب عند خروجها من منزلها، والجلباب رداء طويل الذيل يزحف وراءها على الأرض ما يقارب المتر إمعاناً في ستر قدميها أثناء المسير، إذ أن أغلبهن كن يفضلن المشي حافيات الأقدام في الطرقات، والنادر منهن من تنتعل الحذاء أو

(١) (ص ١٦٢-١٦٣).

القبقاب، ويستر وجهها نقاب كثيف تشع عيناها من فتحتين صغيرتين فيه تجاه العينين.

وأما الصفات التي تمتاز بها المرأة الكويتية فهي تمسكها بتعاليم الدين وهي لا تعرف إلى التبرج سبيلاً، ولا تستعمل من وسائل الزينة غير الحناء في أكفها وأرجلها ورأسها، وتتعطر بدهن الورد والمسك ودهن العود، وهي العطور المفضلة عندها». «ويوم كنتُ في الكويت أقيمت مظاهرة من قبل قسم من طالبات المدارس يطلبن رفع الحجاب، وقد جمعن ما لديهن من البراقع (البواشي) وأحرقنها»!

وتقول لورنس ديونا - وهي صحفية سويسرية زارت الكويت عام ١٩٦٨م وكتبت انطباعاتها وملاحظاتها في كتابها «المرأة في الكويت بين الحصير والمقعد الوثير»[١] :

«إن جميع النساء كن قبل ثلاثين سنة يتسربلن بالنقاب والعباية، أما البوشية - ذلك الحجاب الرقيق- فيخفي وراءه، وما زال يخفي أيضاً في أوساط بعض العائلات المحافظة، وجه بنات المدينة».

---

(١) (ص ٢١-٢٢، ٢٧).

«وفي الكويت جامعتان منفصلتان: الأولى للفتيان، والثانية للفتيات، وهذا التقسيم الذي رغب بعض النواب في سنه قانوناً دائماً، ومن حسن الحظ أن الأمير عبدالله السالم، المتوفى قبل سنوات قليلة، كان قد عارضه؛ لأنه يكلف البلاد مصاريف باهظة»!!

ويقول المؤرخ الكويتي يوسف القناعي في كتابه «صفحات من تاريخ الكويت»(١): «وتخرج المرأة لقضاء حاجتها من السوق أو للزيارة متحجبة، **والسفور لا يُعْرف بالكويت**».

قلت: وأفضل من رَصَد حركة تغريب المرأة المسلمة في الكويت الأستاذة: خديجة المحميد، وذلك في كتابها الذي صدر قبل خمس سنوات تقريباً، بعنوان «حركة تغريب المرأة الكويتية». أنقل منه هذه الفقرات المهمة:

تقول عن المرأة الكويتية قبل حركة التغريب: «أما خارج المنزل فتكتسي بعباءة سوداء، أو غطاء رقيق القماش **تغطي به**

---

(١) (ص ٨٦).

وجهها، ويسمى البوشية»[١].

وتقول: «يقول الشيخ عبدالله الجابر الصباح في حديثه عن النادي الثقافي الذي أنشأه سنة ١٩٢٠م مع بعض الشباب: إننا فكرنا في الوضع النسائي بالكويت، فتبين خطوات قاسم أمين، وهدى شعراوي، وصفية زغلول، في المناداة بحرية المرأة»[٢]!

وتقول: «حدث في سنة ١٩٤٩م أن أقدمت إحدى الفتيات الكويتيات الجريئات على إحراق العباءة في احتفال مدرسي! ثم قامت مجموعة من فتيات الوسط الراقي! بمسيرة، يطالبن فيها بحرية المرأة في زيها وسلوكها»[٣]!

ويُخبرنا الأستاذ حمد السعيدان في «الموسوعة الكويتية المختصرة»[٤] عن أول فتاة كويتية زاولت العمل المختلط -للأسف- فيقول: «وتعد الآنسة شيخه القطامي أول فتاة كويتية تنخرط في سلك العمل جنباً إلى جنب مع الرجل،

---

(١) السابق، ص ١٥.

(٢) السابق، ص ٢٦.

(٣) السابق، ص ٧.

(٤) (ص ١٤٧٥).

وكان ذلك عام ١٩٥٧».

أما عبدالله الحاتم فيرى أن «أول فتاة كويتية اقتحمت ميدان العمل واشتغلت موظفة هي الآنسة شريفة عبدالوهاب القطامي، بدأت حياتها هذه عام ١٩٦٠م بأن اشتغلت موظفة في شركة نفط الكويت»[1].

أما عن بداية الاختلاط في جامعة الكويت، فهي بمثابة معركة لا زالت مستمرة بين دعاة الإسلام ودعاة التغريب، رصد بداياتها وأحداثها الدكتور محمد جواد رضا في كتابه «معركة الاختلاط في الكويت». فليراجع مع التنبه إلى تحيزه لصف التغريبيين!

---

(١) من هنا بدأت الكويت، ص ٨٨. وقد أصدرت الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية بالكويت سجلاً تذكارياً للولوة القطامي، إحدى رائدات التغريب في الكويت، طبعة دار قرطاس، عام ١٩٩٥م. وهي أخت شريفة القطامي. جاء في التعريف بها أن والدها ابتعثها عام ١٩٥٢م ـ وهي لا زالت فتاة صغيرة ـ إلى لندن! فدرست «داخل دير يضم مدرسة داخلية»!! وجاء في السجل التذكاري عنها ـ أيضاً ـ (ص١٣) أنها تفاجأت عند عودتها إلى الكويت بأن النساء كن يلبسن العباءة ويتغطين!

(١) (ص ٥٢)

وأما عن بداية تمثيل المرأة على المسرح في الكويت؛ فقد حدثت عندما استُقدم المخرج المصري «زكي طليمات» لتطوير(!) المسرح الكويتي. فقام طليمات باستدراج المرأة المسلمة لهذا العمل المشين بخطة إبليسية ساعده فيها ثلة من مرضى القلوب والمغفلين.

يقول الأستاذ يوسف التركي في كتابه «لمحات من ماضي الكويت»(١): «وكان من جملة الأشياء التي لحظها الأستاذ زكي طليمات خلال زيارته للكويت عام ١٩٥٨ أن المسرحيات ليست مكتوبة، ولذا اقترح أن تكتب المسرحية ثم وزع الأدوار على الممثلين لحفظها، كما لاحظ أن الرجال يقومون بأدوار النساء ولذا كان من رأيه استقدام ممثلات من خارج الكويت لعدم توافرهن في الكويت».

ولنستمع إلى طليمات نفسه يحكي لنا ماقام به :

يقول - والتعجب مني -: «حينما كنتُ في القاهرة أحزم حقائبي للقدوم إلى الكويت، مستجيباً لدعوة كريمة من جانب وزارة الشئون الاجتماعية والعمل لأن أتولى أمر

---

(١) (ص ٥٢).

توجيه النشاط المسرحي الذي تشرف عليه، وأرسي أسساً صحيحة في فنون التمثيل، كان تساؤل الناس يحوطني من كل جانب، وكأنني مقدم على مجازفة خطيرة، أو معركة غير متكافئة.

ومن مشفقٍ ما عسى أن أفعل في قِطْرٍ حديث العهد بالتحرر الاجتماعي كما تفهمه الحياة الحديثة، وبسفور المرأة خاصة، والمعلوم أنه عسير كل العسر أن تقوم قائمة للمسرح في قطرٍ يحكمه الحفاظ والمحافظة. (!)

حق وصدق أنني أمام تجربة قاسية ومثيرة.. ولكن ما الجديد في الأمر؟ حياتي في المسرح كلها تجارب قاسية ومثيرة، ولم أخرج من إحداها بمال ادخرته، إذ ما زلتُ حتى الآن أركب قدمي أينما سرت، وإن خرجتُ من هذه التجارب بنشوة الباني الذي يزهو بأنه رفع بناءً وأشاد. (!)

سألت نفسي: ماذا في الكويت من مظاهر النشاط المسرحي؟ ثم ماذا تريده الكويت مني على وجه التحقيق؟ مظاهر النشاط هنا تكاد تنحصر في الحفلات التمثيلية التي يحييها الطلاب بين جدران المدارس، ثم في الحفلات القليلة التي يقدمها «المسرح الشعبي»، وأعضاؤه أيضاً من

هواة التمثيل، وهي حفلات يحضرها الجمهور بالدعوات المجانية، وتجري غير متتابعة، وتقدم مسرحيات مرتجلة باللهجة الكويتية، تعالج الأحوال القائمة في أسلوب فني متعثر، ليس من المسرحية الحقة إلا المظهر، وليس لهذه المسرحيات نصوص مكتوبة يتقيد بها الممثلون، هذا والأداء التمثيلي يجري من جانب الممثلين دون تقيد محكم فيما يبدونه كلاماً وإيماءةً وحركةً تبعاً لمقاييس ومعايير تستمد قيمها من موضوع المسرحية ومن الانفصالات التي تجري في شخوصها.

ومع هذا، فإن الجمهور يستمتع بهذه الحفلات إذ لا يجد غيرها مجالاً للتنفيس وللتعبير عما يحسه.

وفي جميع ما تقدم ذكره من مظاهر النشاط المسرحي، يقوم الرجال بأدوار النساء؛ لأن العُرْف السائد في نواحيه المتزمتة(!) يحول دون أن تعتلي المرأة المسرح إلى جانب الرجل، حتى ولو كانت من غير نساء الكويت.

على ضوء ما تقدم تتضح مهمتي فيما يريده مني الكويت لمسرحه الناشئ:

الخطوة الأولى: وقد اتخذتها قبيل قدومي إلى الكويت،

إذ وافق الكرام المسئولون على أن أستقدم معي من القاهرة ممثلتين محترفتين، وهيئة ممن يديرون الحركة المسرحية، فاخترت السيدتين: زوزو حمدي الحكيم، وجيهان رمزي، وكلتاهما من تلاميذي، للأولى خبرة وماض مشرِّف في خدمة المسرح، وللأخرى استعداد خصب يبشر.

وأخذنا نعمل... أقول (نحن) ولست (أنا) وحدي فإذا قلت نحن، فإنني أعني المسئولين في الوزارة، ومن أجريت ذكرهم، ثم أعضاء الفرقة (فرقة المسرح العربي) الذين اخترتهم من الشباب الكويتي والعربي.

أعلنت عن حاجتي إلى شباب يعمل بالفرقة التي ترعاها الوزارة وتشرف عليها، فتقدم أكثر من مائتين وخمسين شاباً، ولم تتقدم فتاة كويتية واحدة، واستغرق أمر اختيار الصالح منهم ثلاثة أسابيع، إذ أن الرغبة وحدها في أن تصبح ممثلا لا تفيد ما لم يكن وراءها استعداد فطري لتلقي فنون المسرح.

وفي أثناء هذه الفترة وقد دوت أبواق الدعاية للفرقة الناشئة عن طريق الراديو والتلفزيون، وبعد محاضرات عدة ألقيتها في شأن المسرح، في ماهيته، وفي أن أهدافه تحرر وتثقيف(!) وليست تحللاً وتزييفاً، وقعت أعجوبة!

تقدمت فتاتان كويتيتان موظفتين في وزارة الصحة، لتعملا ممثلتين، على الرغم من تزمت المتزمتين(!) فعانقتُ في قدومهما الأمل الحلو في نجاح مهمتي، كما ازددت ثقة في أن الكويت على أبواب تطور اجتماعي في حياة المرأة.

وتم إعداد المسرحية بقدوم شهر رمضان وأعلنت استعداد الفرقة لافتتاح موسمها الأول.

ولكن أصواتاً حكيمة، ارتفعت تهمس لي بأن أخذ التريث، وأن أرجئ افتتاح الموسم إلى ما بعد انتهاء شهر الصوم، حتى لا تتحرك أوكار المتزمتين والرجعيين - وفي كل قطر عربي يوجد هذا الطراز من الناس-(!) فيهاجمون الفرقة بدعوى أننا لم نوقر شهر الصوم التوقير كله، فأخرجنا النساء إلى جانب الرجال فوق المسرح، وبينهن فتاتان من الكويت.

وأخيراً: أعترف بأنني لم أكن أُقَدِّر هذا النجاح، وعندما راجعت الأمر بين نفسي وبين مخزونها من التجارب التي تمرست بها، ازداد يقيني بأن العمل الجيد يلقى جزاءه الطيب، لقد أحسن أعضاء الفرقة القيام بمهمتهم فكان جزاؤهم التوفيق. ولكن فرحتي الكبرى، أنه لم يهب إعصارٌ

من جانب المتزمتين فيطيح بالفتاة الكويتية من فوق المسرح(!). إن اسمي «مريم صالح» و«مريم غضبان» سيدخلان تاريخ المسرح الكويتي كرائدتين، وسيكونان دائماً على رأس القائمة لمن تليهما من الفتيات الكويتيات اللواتي سيؤلفن بنشاطهن الفني نقطة انطلاق جديدة في نشاط المرأة الكويتية». انتهى حديث طليمات(١).

قلتُ: لقد باء الهالك بهذه السُنة السيئة التي سنها لمن جاء بعده. وقد كانت نهايته غير مأسوف عليه مأساوية؛ حيث فقد عدة أعضاء من جسده بالعمليات المتتالية - نسأل الله السلامة - (٢).

أخيراً: اقتراحي للفضلاء من أهل الكويت - رجالا ونساء - وقد تيقنوا أن بلادهم كغيرها من بلاد المسلمين تواجه ضغوطات غربية يخضع لها أصحاب المصالح ومرضى القلوب ممن قال الله عنهم: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ...﴾: أن يكون شعارهم في المرحلة

---

(١) نقلاً عن مجلة العربي، العدد ٤٣، وظمياء الكاظمي في كتابها: «الحركة المسرحية في الخليج العربي»، (ص ١٤٦-١٣٦).

(٢) انظر: «صفحات من حياتهم»، لمحمد نصر، ص ١٠٩.

القادمة «خير وسيلة للدفاع الهجوم»، و«إن لم تُشغلهم بالحق أشغلوك بالباطل»؛ وتطبيق ذلك على أرض الواقع يكون بطرح المشاريع العملية التي تُباعد بين المسلمين والفساد؛ ومنها:

١- إعادة الإلحاح في موضوع «تحكيم الشريعة» وتعديل الدستور.

٢- اقتراح إنشاء هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسميتها «هيئة الإرشاد» مثلا؛ تكون مهمتها تذكير الناس ونُصحهم، ونشر الخير بينهم بكافة الوسائل الدعوية المتاحة.

٣- إلزام النساء المتبرجات بالحجاب؛ لأنه بالاتفاق - حتى عند من يرى كشف الوجه - بدعة ومنكر.

٤- المطالبة بمنع الاختلاط في الجامعة، وإعادته لسابق عهده قبل التغريب، وبالمقابل إنشاء جامعات أهلية غير مختلطة.

٥ - توعية الشعب الكويتي بمخططات الأعداء؛ فإن الشعوب إذا التزمت ووعت؛ أفشلت مخططات التغريب مهما كانت مدعومة من الحكومات!

٦- مناصحة بعض الدعاة الحزبيين الذين يُغلبون مصالحهم الشخصية، أو مصالح حزبهم على الحق والفضيلة، أن ينتهوا عن هذا «التلون» و«التقلب»؛ وإلا حُذر منهم. أسأل الله أن يوفق أهل الكويت لما يحُب ويرضى، وأن يجُنبهم كيد الأعداء.

الأجندة الأمريكية في الجزيرة العربية
الفتنة الكبيرة التي تنتظر الحركة الإسلامية [١]

الذي حدث في مجلس الأمة الكويتي وهو يتقاطب حول ملفّ المرأة الأسبوع الفائت وما تمخّض عن ذلك من تصويت لصالح إدماج المرأة في العملية السياسية، وإقحامها إقحاما في الشارع السياسي[٢] له دلالات كثيرة وانعكاسات خطيرة على التنظيمات الإسلامية العاملة في الجزيرة العربية... ولم يتردد ـ والحمد لله ـ عدد من النواب الإسلاميين في التعبير شفاهة «أو كتابة» عن عدم رضاهم لنتيجة التصويت الذي تم في مجلس الأمة. وأفضل ما

---

(١) مقال مهم ومناسب للموضوع، للدكتور عبدالله النفيسي ـ وفقه الله ـ، نُشر في جريدة الوطن الكويتية، بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٢) لمعرفة الجهود التغريبية المتواصلة لإقحام المرأة الكويتية المسلمة في عالم السياسة، يُنظر كتاب: «المسيرة التاريخية للحقوق السياسية للمرأة الكويتية»، نورية السدّاني، وهي إحدى رائدات التغريب في الكويت ـ هداها الله وردها إليه رداً جميلاً ـ.

سمعت في هذا الصدد ـ دونَ بخس حق الآخرين الذين لم أسمعهم ـ هو ما سمعته من النائب أبورميه حفظه الله ونصره حينما قال: إن الله سوف يحُاسبنا على ذلك، وإن كثيرًا من الناس سوف يندمون في نهاية المطاف عندما يرون بأعينهم النتيجة السلبية التي ستترتب على إقحام المرأة في الشارع السياسي. وأفضل ما قرأت في هذا الصدد هو ما كتبه النائب وليد الطبطبائي - حفظه الله ونصره - في جريدة «الوطن» الأربعاء ١٨/٥، والذي أكد من خلاله أن عضوية مجلس الأمة هي «ولاية عامّة» لا تجوز شرعاً للنساء، وقد استشهد بإمام الحرمين الجويني في كتابه «غياث الأمم»، وكان استشهاده في محلّه.

ولقد لاحظ الأخ أحمد الكوس في كلمته التي نشرها في جريدة «الوطن» الخميس ١٩/٥ أن الحكومة سخّرت كل آلتها الإعلامية «تلفاز وإذاعة وصحف» لجانب مشروعها، وأرهبت لجنة الإفتاء، وجَنّدت جميع مدارس وزارة التربية وحتى مراكز تنمية المجتمع في وزارة الشؤون الاجتماعية

والعمل في جميع مناطق الكويت لصالح مشروع الحكومة وكمّمت أفواه الأئمة والخطباء من على المنابر، ومنعتهم من الإدلاء بآرائهم المعارضة لمشروع الحكومة، وبعد كل ذلك تدّعي الحكومة أن خطوتها كانت ديموقراطية!! وهي ملاحظة قيّمة وفي محلّها.

ما يُخيف في هذا الأمر هو سياقه الاستراتيجي الخارجي، ومن الواضح أن الإدارة الأمريكية تابعت هذا الموضوع ورعته منذ البداية، بغرض تثميره في أجندتها الخاصة بالجزيرة العربية، وكان تصريح باوتشر الناطق باسم الخارجية الأمريكية بعد وقت قليل جدا من تصويت مجلس الأمة لافتا للنظر، من جهة كشف الخلفية الأمريكية للموضوع، وليس غريباً على الإدارة الأمريكية هذا الموقف، ليس لأنها نصيرة الديموقراطية ـ كما تدعي ـ ولكن خطوة كهذه من الممكن أن تصبّ في تفكيك البُنى السياسية والاجتماعية التقليدية، وفي ترويض الشخصية القومية لعرب الجزيرة، الذين يقوم مجتمعهم على موروث راسخ من

الفصل بين محيط السياسة والولاية العامة من جهة والمرأة من جهة أخرى، خاصة وأن هذا الموروث هو من الثوابت الإسلامية التي التزم بها مجتمع الجزيرة العربية على مرّ العصور منذ بزوغ الإسلام حتى عصرنا الحاضر.

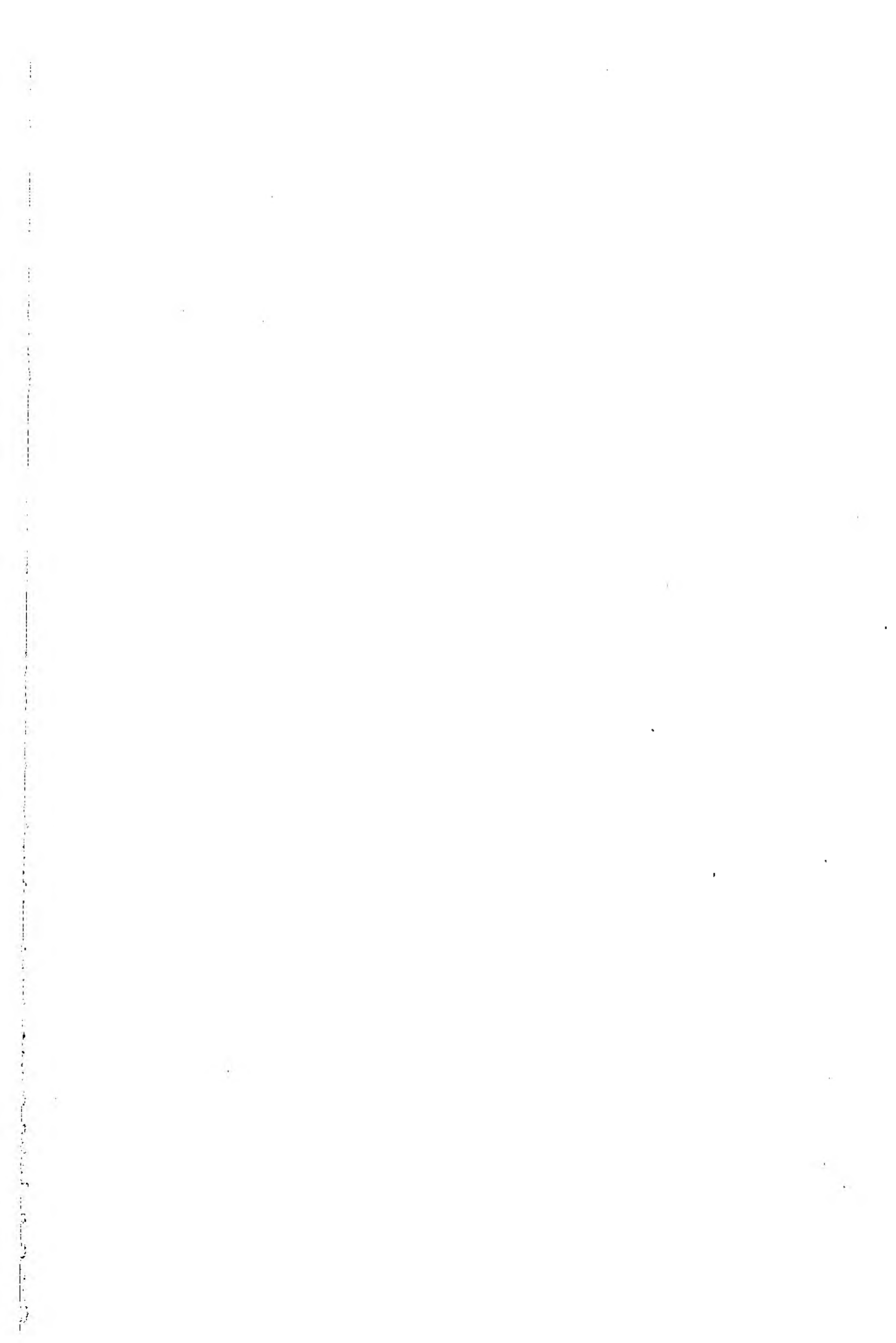
وصار من الواضح - للقاصي والداني - أن تحريك هذا الموضوع وافتعاله وما رافقه من تحريض اجتماعي بارز قد ساهمت في رعايته الإدارة الأمريكية، فلقد جاءت إلى المنطقة عدة وفود من الكونجرس ومن جمعيات أمريكية، كما كانت السفارة الأمريكية ترسل مندوبيها في كل المناسبات للاتصال بالعناصر النسائية الحركية، وكانت الوفود الأمريكية ترسل مندوبيها في كل المناسبات للاتصال بالعناصر النسائية الحركية، وكانت الوفود الأمريكية تحضر جلسات مجلس الأمة وتتصل بالنواب في منازلهم، كل ذلك يكشف الخلفية الأمريكية للموضوع، ويستوجب منا أن نتساءل: لماذا كل هذا الاهتمام الرسمي الأمريكي بموضوع المرأة في الكويت؟

يجب على الحركة الإسلامية في الجزيرة العربية بكل أطيافها وألوانها وراياتها ومسمياتها ألا تفوت هذه الفرصة لاستخلاص الدروس والعبر، وتنقية الصفوف والمفاهيم وتحرير المواقف من الوهن، وتبصير القيادات الإسلامية والقواعد للتحديات السياسية القادمة، ما يوجب البلورة الفكرية، وتأصيل المفاهيم، والمباشرة فورا بعمليات الإرشاد السياسي، والتربية الاجتماعية، وتجاوز العتبات الحزبية قبل أن تجد الحركة الإسلامية نفسها - وباسم الديموقراطية وصوت الأغلبية - وقد تم استيعابها وهضمها وتجنيدها لتنفيذ الأجندة الأمريكية في الجزيرة العربية. أقصى ما تتمناه الإدارة الأمريكية هو حركة إسلامية تلتزم بالضوابط الديموقراطية، ولا تلتزم بالضوابط الشرعية الإسلامية، وأحلى ما تسمعه من كلام هو ذلك الكلام الانفعالي الهائم الطليق الذي تفوه به النائب الإسلامي عندما قال بعد إعلان نتيجة التصويت: «هذا يوم عظيم من أيام الديموقراطية الكويتية»!! أي ديموقراطية يا أخي سامحك الله وعفا عنا وعنك!! وهل سيسألنا الله تعالى في نهاية المطاف عن التزامنا بالديموقراطية والتعددية وتصويت

الأغلبية؟ أم يسألنا عن مدى التزامنا بالثوابت الشرعية التي اخترقها وتجاوزها القانون الأخير موضوع التصويت؟ لقد كشفت التجربة الأخيرة في مجلس الأمة أمرين بارزين: أولهما: أن الحكومة مستعدة لأن تلجأ لكل المخالفات والتجاوزات السياسية والقانونية لتمرير مشاريعها أيا كانت المطابخ السياسية التي طُبخت فيها، وثانيهما: أن النواب الإسلاميين يعانون من خلل كالمنخل على مستوى حركتهم وفكرهم ونضجهم السياسي، وهو خلل خطير وعضوي وبنيوي، قد يجدون أنفسهم في نهاية المطاف أفضل أدوات لتنفيذ الأجندة الأمريكية في الجزيرة العربية، على اعتبار أن التجربة الكويتية - لا سمح الله - سوف يتم تعميمها على أقطار الجزيرة العربية، إن الأمر جلل والفتنة عظيمة، وهي فتنة تنتظر الحركة الإسلامية قبل أن تصبح وسيلة من وسائل تنفيذ الأجندة الأمريكية في الجزيرة العربية: هل أصبحت الديموقراطية فخاً كبيراً منصوباً للحركة الإسلامية؟. اهـ كلام الدكتور النفيسي.

قلتُ: مقال الدكتور ـ رعاه الله ـ مهم للرد على «سذاجة» بعض المحسوبين على الخير من الدعاة «الحزبيين» المتقلبين والمتلونين، الذين يُساومون على دين الأمة وأخلاقها في سبيل أن يرضى عنهم أعداء الله، أو أن يُعجلوا بالحصول على مطمح سياسي «موهوم»؛ ثم يكتشفون في النهاية أنهم لاحصلوا «دنيا» ولا أبقوا «دينا».. بل أفسدوا غيرهم ممن انخدع بمظاهرهم. وهذا الصنف المتلون يوجد في كل بلد من بلاد المسلمين؛ فليحذره المسلمون وليُحَذروا منه؛ قبل أن يورطهم - بحماقته وقلة ديانته - في تنفيذ مخططات الأعداء وهم لا يشعرون. والله الهادي.

* * *



الفهـــرس

*   *   *


العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging